الباب الخامس

العلوم المتعلّقة بإعجاز القرآن

وفيه أربعة علوم:

1 ــ علم إعجاز القرآن.

2 ــ علم فواتح السور وخواتمها.

3 ــ علم المناسبات بين الآيات.

4 ــ علم بلاغة القرآن.

1 ـــ علم إعجاز القرآن(*)

تحدَّى القرآنُ فصحاء العَرَبِ بمُعارضَتِهِ، وطاوَلَهُم في المعارضة، ولكنهم انهزموا

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: مقدمة «**جامع البيان**» للطبري 1/ 4، ضمن القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن. . .، ومقدمة «**المحرر الوجيز**» لابن عطية 1/ 71 نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن، ومقدمة «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي 1/ 69 باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 218، و«**الإتقان**» للسيوطي 4/ 3 النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زادة 2/ 482 علم معرفة إعجاز القرآن و«**كشف الظنون**» لحاجي خليفة 1/ 120 علم إعجاز القرآن، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 78 علم إعجاز القرآن، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 2/ 227، المبحث السابع عشر في إعجاز القرآن وما يتعلق به، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح ص: 313 ضمن الباب الرابع في التفسير والإعجاز، الفصل الثالث إعجاز القرآن، و«**علوم القرآن الكريم**» للعتر، ص: 191، و«**معجم الدراسات القرآنية**» لابتسام الصفار ص: 61 إعجاز القرآن، و«**معجم مصنفات القرآن الكريم**» للشواخ 1/ 139 إعجاز القرآن وبلاغته، و«**نظرات في معجزة القرآن**» لمحمد دياب (مقال في مجلة منبر الإسلام ع4، 1393هـ/ 1973م)، وفي «**إعجاز القرآن**» لفاضل شاكر النعيمي (مقال في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع14، مج 2، 1391هـ/ 1971م)، و«**الشبهة حول إعجاز القرآن**» لمحمد باقر الحكيم (مقال في مجلة الرسالة الإسلامية العراقية ع1، 1391هـ/ 1971م) و«**إعجاز القرآن**» لأحمد الحوفي (مقال في مجلة منبر الإسلام ع10 - 11، 1391هـ/ 1971م)، و«**إعجاز القرآن**» لمحمد البهي (مقال في مجلة الفكر الإسلامي ع 5، 1390هـ/ 1970م)، و«**الكلمة القرآنية وسر الإعجاز فيها**» لمحمد سعيد البوطي (مقال في مجلة العربي ع 144، 1390هـ/ 1970م)، و«**إعجاز القرآن**» لدرويش الجندي (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 10، 1388هـ/ 1968م)، و«**الإعجاز التشريعي في القرآن**» لعلي علي منصور (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 2، 1388هـ/ 1968م والأعداد 1، 2، 5، 9، 10، عام 1389هـ/ 1969م) و«**حول إعجاز القرآن**» (مقال في مجلة منبر الإسلام ع2، 1388هـ/ 1968م، و«**أحداث أنبأنا بها القرآن قبل وقوعها**» لمحمد عسر (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 12، 1387هـ/ 1968م) و«**الإعجاز الطبي في القرآن**» لمحمود دياب (مقال في مجلة منبر الإسلام س 23، ع 4، 135هـ/ 1965م)، و«**الناحية العلمية في إعجاز القرآن**» للغمراوي محمد أحمد (مقال في مجلة الأزهر، الأعداد 4، 6، 11، 1384هـ/ 1964م والعددان 3، 4، 1385هـ/ 1965م) ومن «**نواحي إعجاز القرآن**» لنهال أحمد الزهاوي (مقال في مجلة التربية الإسلامية العراقية ع10، س 6، 1384هـ / 1964م) و«**الإعجاز البياني للقرآن**» لحفني شرف (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 4، 1383هـ/ 1963م، والأعداد 6، 7، 8، 9، 10، 1383هـ/ 1964م) و«**المعجزة الكبرى في سورة الروم**» لمحمد محمود السلاقوني (مقال في مجلة منبر الإسلام س 21، ع 2، 1383هـ/ 1963م) و«**الإنباء عن المستقبل من** =

أمام تحدِّيه، وأعلنوا عجزهم عن تقليده، لأنه يعلو وما يُعلى، وما هو بقول بشر.

ولقد كان الإعجاز القرآني خليقاً أن يثير في الحياة الإسلاميّة مباحث على جانب عظيم من الأهمية، يتصدّى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير والتعبير. وبذل أولئك العلماء جهوداً مشكورة، وقاموا بمحاولات مضنية، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة مُوجَبة ذات ظِلاَل.

ولعلّ الجاحظ (ت 255 هـ) أول مَنْ تكلم على بعض المباحث المتعلقة بالإعجاز في كتابه «**نظم القرآن**»، ولم يصلنا هذا الكتاب، ولكن للجاحظ نفسه إشارات إلى هذا المصنف في كتابه «**الحيوان**» إذ يقول: «ولي كتاب جمعتُ فيه آياً من القرآن لِتَعْرِفَ بها ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتَها رأيتَ فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة».

هذا ما فعله علماء المسلمين قديماً لكشف وجوه الإعجاز في القرآن، وما إن أهلَّ القرن العشرون، حتى ظهرت دراسات من نوع آخر جديد اتجهت لبيان الإعجاز

= **معجزات القرآن**» لمحمد وصفي (مقال في مجلة منبر الإسلام س 21، مج 6، 1383هـ/ 1963م)، و«**نداء المخاطبين في القرآن أسراره وإعجازه**» لعلي عبد الواحد وافي (مقال في مجلة الأزهر مج 25، ع 2، 1383هـ / 1963م) و«**آيات التحدّي**» لمحمد سعاد جلال (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 6، 1382هـ/ 1962) و«**إعجاز آيات الخلق في القرآن**» لحسين حلمي (مقال في مجلة منبر الإسلام ع1، 1382هـ/ 1962م) و«**حول إعجاز القرآن لحسن الشيخة**» (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 3 و5، 1381هـ/ 1961م) و«**معجزة الدهر لا معجزة العصر**» لبدوي طبانة (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 6، 1381هـ/ 1961م)، و«**من أوجه الإعجاز في القرآن: الإعجاز الموسيقي**» لعبد السلام شهاب (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 5، 1380هـ/ 1960م)، و«**شعاع من الإعجاز**» للغزالي محمد (مقال في مجلة منبر الإسلام ع2، 1377هـ/ 1957م) و«**من أسرار الإعجاز في النظم القرآني**» لعبد الكريم الخطيب (مقال في مجلة منبر الإسلام ع 1، 1386هـ/ 1956م). و«**النظم في دلائل الإعجاز**» لمصطفى ناصف (مقال في مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس 1375هـ/ 1955م)، و«**آراء الذين عاصروا عهد النبوة في إعجاز القرآن**» لمحمد بن عبد المنعم خفاجي (مقال في مجلة الأزهر مج 22، ع 6 و7، 1370هـ/ 1951م)، و«**إعجاز القرآن**» لمحمد أمين هلال، (مقال في مجلة الإسلام ع 31، 1371هـ/ 1951م)، و«**تشريعات القرآن بلاغته وحدها فيها الدلالة الكبرى على إعجازه**» لأحمد عبد المنعم البهي (مقال في مجلة العربي ع 128، 1385هـ/ 1965م)، و«**بين اللفظ والمعنى وإعجاز القرآن**» لعبد الغني الراجحي (مقال في مجلة منبر الإسلام س 30، ع 10، 1392هـ/ 1972م)، و«**شواهد لبلاغة الإعجاز في القرآن الكريم**» (مقال في مجلة الأزهر مج 22، 1370هـ/ 1950م) و«**المعجزة الخالدة**» لحسن ضياء الدين عتر، حلب.

العلمي في القرآن، كمراحل خلق الجنين في بطن أُمّه، ونحوها من مسائل الكشوفات العلمية سبق القرآنُ فيها العلم أربعة عشر قرناً، وكشف عنها كشفاً دقيقاً، مما يدلّ على أن هذا القرآن هو وَحيٌ إلٰهي، أنزله خالق السمٰوات والأرض.

و(المعجزة) في اصطلاح علماء التوحيد هي: «أمر خارِقٌ للعَادَةِ مَقْرُونٌ بالتَّحَدّي، مع عَدَمِ المُعارَضَة».

ويُطلق على المُعجزات: «دلائل النُّبوة» و«أعلام النُّبوّة»، ونحو ذلك، وهذه الألفاظ إذا سُميت بها آيات الأنبياء كانت أدَلّ على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب ولا في السنّة، وإنما فيه لفظ: الآية، والبيّنة، والبرهان»[1].

الفرق بين المعجزة والكرامة والسِّحْر:

قد يُكْرِم الله تعالى بعضَ أوليائه من المُتّقين الأبرار بأمر خارِقٍ يُجْرِيهِ له، ويُسَمَّى ذلك (الكرامة).

وثمّة فرق شاسع بين المُعجزة والكرامة؛ لأن الكرامة لا يدّعي صاحبُها النبوّة، وإنما تظهر على يده لصدقه في اتّباع النبي، لذلك قرّر كثير من المحققين كالإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) وغيره أن الكرامات التي تقع للأولياء هي من جملة معجزات الأنبياء، وهذا حقّ وصواب؛ لأن هؤلاء الأبرار ما كانت تقع لهم هذه الخوارق لولا اعتصامهم بالاتّباع الحقّ للنبيّ ﷺ، وقيامهم بدعوته، فكانت الكرامة لهم معجزة للنبي ﷺ، ومن ثم تقرّرت هذه القاعدة: «كلُّ كرامة لِوَلِيٍّ مُعْجِزَةٌ لِنَبِيِّه».

وأما (السِّحر) فهو أبعَدُ شيء عن المعجزة أو الكرامة، وإنْ كان قد يقع فيه غرابة وعجائب، لكنه يفترق عن المعجزة والكرامة من أوجه كثيرة تظهر في شخص الساحر وفي عمل السحر:

(1) **«لوائح الأنوار البهية»**، للسفاريني 2/ 278، لكن يجب التنبه إلى التمييز بين المعجزة والآية أو البرهان والبيّنة في اصطلاح علماء التوحيد.

فَمِمّا يفترق به الساحر عن الولي ركوب متن الفسق والعصيان، والطاعة للشيطان، والتقرُّب إلى الشياطين بالكفر والجنابة والمعاصي، حتى ترى الساحر أكذبَ الناس وأشدَّهم شرًّا.

وأما عمل السحر فقد يكون مُستغرَباً طريفاً، لكنه لا يخرج عن طاقة الإنس والجن أو الحيوان، كالطيران في الهواء مثلاً، بل هو أمر مقدور عليه لأنه يترتب على أسباب إذا عرفها أحد وتعاطاها صنع مثلها أو أقوى منها، لذلك ما إنْ يُوَاجَه السحر بالحقيقة حتى يذهب سدى، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: 69]، ومن هنا خضع السحرة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنهم وهم أعرف الناس بالسحر، كانوا أكثر الناس يقيناً بِحَقّية معجزته، وصِدْقِ نُبُوَّتِهِ فما وسعهم أمامَ جلال المعجزة الإلٰهية إلا أن خرُّوا سُجَّداً وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

تنوُّع المعجزة

وتنقسم المعجزات إلى قسمين:

القسم الأول: المعجزات الحِسِّيَّة:

مثل: معجزة الإسراء والمِعْراج، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ حتى رَوَى المِئِينَ، وتكثير الطعام القليل، وقَلْبُ العَصَى حَيّة، وإحياء الموتى. . .

القسم الثاني: المعجزات العقلية:

مثل الأخبار عن المُغَيَّبات، والقرآن الكريم، واستجابة الدعاء.

وقد جرت سنّة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كل نبي مُشاكِلَةً لما يُتْقِنُ قومُه ويَتَفَوَّقون فيه. ولما كان العربُ قَوْمَ بَيَانٍ ولَسَنٍ، يُقادُون بِمِقْوَلِهِمْ كانت معجزة النبي ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم.

مصدر علمنا بإعجاز القرآن:

وقد أُعْلِنَ إعجازُ القرآن على العالم من أعظم مصدر ثابت، وهو القرآن نفسه، حيث نادى على رؤوس الأشهاد وفي كل جيل وقبيل يتحدى الناس بل العالم أن يأتوا

بمثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: 33-34].

فقد كبّلهم بالعجز عن هذا التحدِّي فلم يفعلوا ما تحدّاهم، فجاءهم بتخفيف التحدي فتحدّاهم بعشر سور فحسب في هذه الآية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: 13-14].

ثم أرخى لهم حبل التحدي، ووسّع لهم غاية التوسعة فتحدّاهم بسورة واحدة أي سورة ولو من قصار السور، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: 38].

وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً والمسلمون قليل مُسْتَضْعَفُون، وكان الوحي يتتابع وهو يتحدّاهم، ويفضح عجزهم الذي استبان وظهر لكل من له عين تبصر، وأذن تسمع، وعقل يعي، وقد قطع الله عليهم، بل على الثقلين كُلِّهم منافذ اللدود لهذا الإعلان الحاسم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وقد أمْعَن القرآن في هذا التَحدِّي، وأكّده في سورة البقرة المدنية، فتَحدَّاهم ثانية بسورة منه، وأكّد عجزهم عن ذلك بالإعلان على العالم أنهم لن يستطيعوا ذلك، ولن يفعلوه أبداً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23-24].

القدر المعجز من القرآن:

وهكذا نجد القرآن تحدّى العرب أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن، ولو كانت من قِصَار سُوَرِه، وإذا كانت أقصر سورة فيه هي سورة الكوثر تتألف من ثلاث آيات قصار، علمنا أن كلّ آية طويلة معجزة، وكلّ عِدّةِ آياتٍ قصار تَبْلُغ سورة الكوثر أو أكثر من ذلك فهي معجزة كذلك.

وإذا علمتَ أن عدد آيات القرآن: (6236) آية، علمتَ كم عدد المعجزات في القرآن الكريم، فضلاً عن النظر فيما يحمله من أوجه الإعجاز المُتعدّدة، فتكون معجزاته بذلك كثيرة متنوّعة يضيق عنها الحصر والتعداد.

خصائص إعجاز القرآن:

إنّ مِنَ المقرر المعلوم أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى بين سائر المعجزات، لما اختص به في إعجازه من خصائص ليست لمعجزة سواه.

1 ـ **اختُصَّ القرآنُ**: مع كونه معجزاً أنه مُعْجِز لجميع المُكَلّفين، فوجب في الحكمة أن يكون أمراً يبقى ببقاء التكليف، ولذلك تكفّل الله تعالى بحفظه وحراسته، وخصّه بأن أوْدَعَهُ مِنْ عِلم الأوّلينَ والآخِرينَ، ومن دلالة الحرام والحلال ما يدعو إلى تحفظه والتوفر إلى تأمله..)[1].

2 ـ **اختُصَّ القرآنُ بكونه معجزة بذاته بخصوصية ثانية**: انفرد بها عن جميع المعجزات، بل عن جميع البراهين والبينات، قال ابن خلدون (ت 808 هـ): «فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي يتلقّاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المُدَّعَى، وهو الخارق المُعْجِز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ **«ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وَحياً أوْحَى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكْثَرَهُم تَابِعاً يَوْمَ القِيامة»**[2]. يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهي كونها نفس الوحي، كان المُصَدِّقُ لها أكْثَرَ لِوُضُوحِها، فَكَثُرَ المُصَدِّقُ والمُؤمِنُ، وهو التابع والأمة»[3].

3 ـ **ثمة خُصوصيةٌ أخرى بالغة الأهمية**: هي أن الإعجاز في الخوارق الحِسِّيَّةِ أنها أمور مُخالَفِةٌ للمُعْتاد من سُنَن الكون، وقواعد الطبيعة، فتأتي المعجزة الحسية

(1) **«المغني»** للقاضي عبد الجبار 16/ 344.

(2) **«البخاري»** 9/93، و**«مسلم»** 1/ 92 ـ 93.

(3) **«مقدمة ابن خلدون»** ص: 106 ـ 107 (مطبعة التقدُّم بمصر سنة 1329).

ويُذرِكُها الناسُ بتلك المخالفة لقوانين الطبيعة، فيعلمون إعجازَها، وصِدْقَ النبيِّ الذي ظهرت على يديه[1].

أما إعجاز القرآن فإنه لم يكن بواسطة مخالفة السنن الكونية، وصرف الإنسان عنها، بل إن معجزة هذا القرآن يدركها الإنسان بمِقْدارِ إعْمَال عَقْلِه وفَهْمِهِ، بل إنه كلما ازداد معرفة بسنن الكون والطبيعة ازداد يقيناً بإعجاز هذا القرآن.

ولذلك واجه القرآن عناد المشركين وتَطَلُّبهم للمُعْجزات بخصوصية القرآن الكبرى التي تجعله يكفي عن كل معجزة، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت: 50-51].

شهادة العالم بإعجاز القرآن

شهادة العرب بأحوالهم وأفعالهم:

بعث الله محمداً ﷺ والعرب أَكْثَرُ ما كانت شاعراً وخطيباً، ـ كما ذكر الجاحظ (ت 255 هـ) ـ وأحكَمُ ما كانت لُغَةً، وأَشَدُّ ما كانت في البيان عُدَّة، لهم القصيدُ العجيب، والرَّجَزُ الفاخر، والخُطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، إذا تأملتَ بالذوق الصحيح، والملكة الفنية المِذواق، تَبيَّنْتَ من خلال أدبهم ما بلغوه في هذا المضمار.

فلمّا أمر الله نبيَّه أن يُبَلِّغ دعوته للناس، راح يَتَتَبَّعُ أفراد عشيرته وقومه، يقرأ عليهم ما نزل عليه من القرآن، ولم يكن برهانه ولا ما أُمِرَ به أنْ يُلْزِمَهم حجةً وبرهاناً، إنما هو إله واحد وأن محمداً نبي لله، إلّا دليلًا واحداً هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه.

(1) ننبه هنا إلى أنها ليست مخالفة للعقل، ولا هي مستحيلة في النظر العقلي المجرّد، أي إن تتابع الأحداث في الطبيعة وإنتاج الأسباب للمسببات ليس واجباً عقلياً مثل كون الواحد والواحد يساوي اثنين، لكن العادة جرت على ذلك بحكمة الله تعالى وتدبيره، وقد يتحقق السبب ولا يتحقق المسبب لمانع، أو لتدخُّل قانون طبيعي أعلى من الأول، وهكذا يُجْري اللهُ المُعجزاتِ وَفْقَ سُنَنٍ إلْهية خاصة غير معروفة للبشر، ولا داخلة في تعلمهم، وهو خالِقُ العالَم ومُدَبِّره، وذلك لتحقيق حكمته وإرادته في تأييد رسله وأنبيائه.

قال الإمام الباقِلّاني (ت 403 هـ): «فلو كان هذا القرآن من ذلك القبيل ـ الشعر ـ أو من الجنس الذي أَلِفُوه لم تَزُلْ أطماعهم عنه، ولم يُدْهَشُوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أَمْهَلَهُم، وفسح لهم الوقت، وكان يدعوهم إليه سنين كثيرة، وقال عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: 37] وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي بَان أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرون عليه. .»[1].

بل إنّ العربَ قد تحمَّلوا في مواجهة التحدّي بالقرآن، وركوبهم متن العناد، والتصميم على الشرك وعبادة الأوثان، الأهوالَ والأخطارَ، فلو كان ذلك بوسعهم، وتحت مقدورهم لما عدلوا عن السهل المتناول من القول يخملون به حجته، ويصرفون الناس عن دعوته، إلى ركوب متن كل صعب وذلول، وتكلّف الوعر المُضْني من الفعل بِخَوْضِ غِمار الحرب.

شهادة بلغاء العرب بإعجاز القرآن بأقوالهم:

صدرت عن سادة العرب الفصحاء البلغاء اعترافات صريحة بإعجاز القرآن، أَمْلَتْها عليهم سَجِيَّتُهم العربية، وطبيعتهم الفنية التي لا يمكن معها جَوْر ولا مُحاباة، وإن كانوا مُخالِفين لرسول الله ﷺ، معاندين دعوته إلى الإيمان، وقد أوردت لنا المصادر وقائع كثيرة يطول بسطها واستقصاؤها هنا[2].

من ذلك ما روى الإمام محمد بن إسحاق (ت 151 هـ) في كتاب «**السيرة**»: أنّ عُتْبَة بنَ ربيعة ـ وكان سيِّداً ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ في المسجد وحده: يا معشرَ قُريش أَلا أقوم إلى محمد فَأُكَلِّمُه وأَعرِضُ عليه أموراً لعلّه يقبلُ بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ قد اشْتَدَّ ساعدهم، فقال: يا ابن أخي! إنك مِنّا حيثُ عَلِمْتُ من السِّطة[3] في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم، فرّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهْتَ به أحلامهم، وعِبْتَ آلهتهم ودينهم وكفّرت به مَن مضى من

(1) «**إعجاز القرآن**» للباقلاني ص: 289.
(2) انظر كتاب «**المعجزة الخالدة**» لحسن ضياء الدين عتر.
(3) أي الفضل والشرف، من السَّطوةِ والسلطان أيضاً لأنه ﷺ كان من أشراف قريش وذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

آبائهم، فاسْمَعْ منّي أَعْرِضْ عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟

قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسْمَعْ**». قال: يا ابن أخي إن كنتَ إنّما تريدُ بما جِئتَ به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد به شرفاً سَوَّدناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيكَ رِئياً تَراهُ لا تستطيع رَدَّه عن نفسك طلَبْنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئَكَ منه، فإنه ربما غلب التابع[1] على الرجل حتى يُداوَى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عُتْبَةُ ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «**أفرغتَ يا أبا الوليد؟**» قال: نعم. قال: «**فاستمع مني**»، قال: أَفْعَلُ. قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ [فصلت: 1-4]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه فلما سمع عتبة أنصت وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك**».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضُهم لبعض: «نَحْلفُ بالله لقد جاءَكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي سمعتُ قولاً والله ما سمعت مِثْلَه قطّ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشرَ قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعْتَزِلوه، فَواللهِ ليكونَنّ لِقَوْلِهِ الذي سمعتُ نَبَأ، فإنْ تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُموه بغَيْرِكُم، وإنْ يَظْهَر على العرب، فَمُلْكُه مُلْكُكمْ وعِزُّهُ عِزُّكُم، وكنتم أسْعَدَ به. فقالوا: سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[2].

ولقد تحيّرت العرب في شأن هذا القرآن لأنه نزل بلسانهم، لسانٍ عربي مبين، ثم هم يجدونه مُبايناً لكلامهم، فحاروا ماذا يقولون فيه من طغيان اللَّدَدِ والخُصومَة.

وإنه لخَبَرٌ مشهور، خَبَرُ تَحَيُّر المَلأ من قريش، حينما ائتمرت حين حضر موسم الحج، لكي يَتَّفِقوا على قول واحد يقولونه للناس، وقد رأوا شتات كلامهم السابق المختلف، وأداروا الرأي فيما يقولون في هذا القرآن، وفي النبي الكريم الذي سوف

(1) أي الجني، بزعمه الفاسد.
(2) «**تفسير ابن كثير**» 4/ 90 - 91.

يتلو هذا القرآن على الناس في الموسم؟ فطرحوا فكرة القول بأنه شاعر، وأنه كاهن، أو أنه مجنون أو ساحر، وصاحب المَشُورة فيهم: الوليدُ بن المُغِيرة، يَرُدُّ كُلَّ ذلك عليهم بالحُجَّةِ والبرهان، ثم قال: والله إن لقوله لَحلاوة، وإن أصله لَغَدَق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإنَّ أقْرَبَ القَوْلِ فيه لأَنْ تَقُولوا: «ساحِرٌ جاء بِقَوْلٍ يُفَرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته».

فهذا التحيُّر المُظلم الذي غَشَّاهم وأخذ منهم بالكَظْم، والذي نَعَتَهُ الوليد فأجاد النعت، كان تَحَيُّراً لما يسمعون من نظمه، وإعظاماً ودهشة لما يحسّون من إعجاز بيانه.

ولهذا فإنهم كانوا يخافون أن يفلت الزمام من أحدهم فيدخل في الإسلام لتأثره بعظمة القرآن، حتى قالوا لبعضهم كما سجَّل القرآن ذلك عليهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

فكانوا إذا تلا النبي القرآن عليهم صَخِبُوا وصَفَّقُوا كَيْلاَ يَتَمَكَّن الناسُ من سماع القرآن بهذا الضجيج، فكانت طريقة في الغلبة طريفة...

بُلَغَاء كِبَار سَمِعُوا القُرآن فآمنوا:

وهذا أعظم الشهادات بإعجاز القرآن، إن سادة العرب في البيان ألقوا زمام قيادتهم وأسلموا لهذا القرآن، وللنبي ﷺ «مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه، وكعب بن زهير في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت، وغيرهم: من الشعراء والخطباء الذين أسلموا. على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر زاخر»[1].

وما قصة إسلام عمر بخافية عنّا، وما أسلم إلا بتلاوته للقرآن الكريم من سورة [طه] كما هو معلوم. وروى الإمام مسلم (ت 261 هـ) في «**صحيحه**» عن أبي ذَرّ رضي الله عنه، حديثاً طويلاً عن إسلامه، وفيه: أن أُنَيساً أخا أبي ذَرّ ذهب إلى مكة، ثم عاد فقال لأبي ذر: «لَقِيتُ رجلاً بمكّة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلتُ: فما يقول الناسُ؟ قال: يقولون شاعر، كاهِن، ساحِر. وكان أُنَيْسُ أَحَدَ الشُّعراء. قال أُنَيْسٌ: لقد

(1) انظر «**إعجاز القرآن**»، للباقلاني ص: 304 - 305.

سمعتُ قول الكَهَنَة فما هو بقولهم. ولقد وَضَعْتُ قوله على أَقْراءِ الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر. والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون»[1].

ونسوقُ لك تصريح جُبَيْرِ بن مُطْعِم بأنَّ سَبَبَ تَحَوُّلِ قَلْبِهِ إلى الإسلام، أنه أصغى إلى تلاوة الرسول سورة الطور في صلاة المغرب. فقد روى البخاري في «**صحيحه**» عن محمد بن جبير عن أبيه قال: «سمعتُ النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[2].

شهادة بلغاء من النَّصارَى بإعجاز القرآن:

جاء في تقديم كتاب «**إعجاز القرآن**» لمصطفى صادق الرافعي (ت 1356 هـ): «فإن من أوتي حظاً من بيان هذه اللغة وفاز بسهم رابح من آدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها، لا يملك أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته، وبأسلوبه في نظم عبارته. وقد صرّح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرين الأستاذ «جبر ضومط» مُدرِّس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكانية في كتاب «**الخواطر الحسان**».

قال الرافعي يعلّق على هذا: «وصرح لنا بذلك «بإعجاز القرآن» أديب هذه الملة وبليغها الشيخ إبراهيم اليازجي الشهير، وهو أبلغ كاتب أخرجته المسيحية، وقد أشار إلى رأيه ذلك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد)، وكذلك سألنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران، ولا نعرف مِنْ شُعراء القوم مَن يُجاريه فأقرّ لنا بمثل ما أقرّ به أستاذه اليازجي، والأمر بعد إلى العقل «**المنصف**»، والعقل «المنصف» ليس له دين إلا الحق. والحق واحد لا يتغيّر»[3].

كذلك الأديب الشاعر المعاصر «نِقُولا حَنّا» قد تلا القرآن، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده، وزاده إيماناً بالله على إيمانه، وقذف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز، وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء، فهو

---

(1) «**صحيح مسلم**» فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر ﷺ 4/ 1920 (طبع عيسى البابي الحلبي بمصر)، أما قوله (على دينك) أي مثلك يعبد الله والمراد بقوله: «**أقراء الشعر**» طرقه وبحوره، وبقوله (فما يلتئم... أنه شعر) لا يوافق نسق الشعر.

(2) كتاب المغازي والسير – قبيل باب تسمية من سمي أهل بدر.

(3) عن «**وحي القلم**» – بتصرف يسير ص: 15 – 16.

معجزة إلٰهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها. وأعلن ذلك في قصيدة من روائع الشعر، عنون لها بهذا العنوان «من وحي القرآن» وقال في مقدمة هذه القصيدة:

(قرأتُ القرآن فأذْهَلَنِي، وتَعَمَّقْتُ به ففتنني، ثم أعدت القراءة فآمنتُ... آمنتُ بالقرآن الإلٰهي العظيم، وبالرسول مَنْ حَمَله، النبي العربي الكريم، أما الله فَمِنْ نَصْرَانِيَّتِي وَرِثْتُ إيماني به، وبالفرقان عظم هذا الإيمان... وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظُرُها وأحسُّها كل حين.. هي معجزة لا كبقية المعجزات.. معجزة إلٰهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدّث عنها أو يُبَشّر بها).

وكان يقول: «وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى عُلماء ومُبَشّرين وشواهد وحجج وبراهين لحضّ الخلق على اعتناقها، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبت أصولها في القلوب. أما الإسلام فقد غني عن كل ذلك بالقرآن، فهو أَعْلَمُ مُعَلِّم وأهْدَى مُبَشِّر، وهو أصدقُ شاهداً وأبلغُ حجةً وأدمغ برهاناً... هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزَلي، المنظورة المحسوسة في كل زمان... ومن إيماني العميق هذا استلهمت أبيات قصيدتي هذه»[1].

وذكر في قصيدته ثبوت نبوة محمد ﷺ بمعجزات كثيرة أجلّها القرآن، وكان مما قال فيها:

يقولون ما آياته، ضلّ سعيهم ... وآياته - ليست تُعَدُّ - عِظامُ[2]
كفى معجزُ الفرقان للناس آيةً ... علا وسما كالنجم ليس يُرَامُ
فكل بليغ عنده ظل صامتاً ... كأن على الأفواه صُرَّ كِمامُ[3]
وشاء إله العرش بالناس رحمةً ... وأنْ يتلاشى حِقْدُهم وخِصامُ
فَفَرَّق ما بين الضلالة والهدى ... بِفُرْقانِ نورٍ لم يَشُبْه قَتَامُ

(1) «من وحي القرآن» نقولا حنا: ص: 1.

(2) (ليست بعد) جملة معترضة بين المبتدأ (آياته) والخبر (عظام)، والمراد أن آيات النبي عظام أي معجزاته عظيمة جداً وكثيرة لا يحيط بها العد والإحصاء.

(3) الصَرُّ: الشَدُّ أو الربط. الكمام: ما يكم به فم البعير لئلا يأكل أو يعضّ.

منشأ إعجاز القرآن

راي الإعجاز بالصَّرفَة:

على الرغم من إجماع العلماء على إعجاز القرآن، وأن إعجازه وصف ثابت له، فقد شذّ بعض المتكلمين وهو أبو إسحاق، إبراهيم بن سيّار النظام (ت 232 هـ) من المُعْتَزِلة، ونحى في هذه المسألة منحى انفرد به دون أهل العلم قاطبة، وعُرِفَ رأيُهُ بينهم بـ «الصَّرْفَةِ».

وقد فسّر النَّظَّامُ إعجاز القرآن بهذا وقال يشرح رأيه: «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حُجّة على النبوّة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به».

وقد جرّ النظّام لهذا القول بُعْدُه عن معاناة أساليب البيان وانشغاله بالأساليب الفلسفية، مما أدّى إلى وقوعه في هذا الخلط في تفسير إعجاز القرآن.

وجدير بالذكر أن هذا القول لا يدخل فيه عنصر الطعن في القرآن، ولا كان في قصد صاحبه ما يحوم حول ذلك، لأنه يعترف ويشهد بأنه من عند الله تعالى، إلا أنه شذّ في تفسير إعجاز القرآن، وحسب القارىء هنا أن أحداً من علماء البيان لم يوافقه على ذلك، حتى المعتزلة أنفسهم ومنهم تلميذه الجاحظ، الذي عني برد هذا الرأي وجلاء إعجاز نظم القرآن حتى كان ـ أي الجاحظ ـ أول من يبلغنا عنه هذا التعبير «نظم القرآن».

والحقيقة أن هذا الرأي من الضعف بحيث يغني شرحه عن تكلف الردّ عليه، ولولا ترداده على ألسنة بعض المتحذلقين في هذا العصر لما عرضنا له بشيء لمصادمته بدهيات الدلالة من القرآن والإجماع والعقل والواقع، كما أوضحه العلماء.

قال الإمام الزركشي (ت 794 هـ) في **«البرهان»**[1]: «وهو قول فاسِد، بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ

(1) **«البرهان»** للزركشي 2/ 93، باختصار وتصرف يسير.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم. ولو سُلِبوا القدرة لم يبقَ فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره. هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة - أي نسبة - الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله... ومما يبطل القول بالصَّرْفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما مَنَع منها الصَّرفة لم يكن الكلام معجزاً وإنما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه».

يعني وأن فضيلة القرآن ظاهرة، ومزاياه معجزة باهرة، مما يدل على بطلان تفسير إعجاز القرآن بالصرفة، ويثبت الإعجاز الذاتي للقرآن العظيم.

ونتكلم عن أوجه إعجاز القرآن فيما يلي:

أوجه إعجاز القرآن الكريم

كثرت الدراسات واستفاضت البحوث في تبيان أوجه الإعجاز الذاتي للقرآن؛ فما من عصر إلا قُدِّمت فيه مجموعة من الدراسات والآراء تحاول كشف أوجه إعجاز القرآن، مما قدَّمَ للدراسات القرآنية واللغوية البيانية كُنوزاً لا تفنى ذخائرها ولا تبيد.

والجدير الذكر هٰهنا أن تعدد الآراء في بيان أوجه إعجاز القرآن وتنوع الوجهات في دراستها ليس تنوع اختلاف وتعارض، إنما هو تنوع ناشىء من غزارة فنون هذه المعجزة وعظمتها، مما يجعل أي فكر أو أي عصر من العصور عاجزاً عن استنفاد أوجه إعجاز القرآن والإحاطة بها خُبْراً، وإنما يبلغ من ذلك مقداراً يتناسب مع ما يمكن أن يحققه هذا الإنسان العاجز المحدود، وهو يحاول فك أسرار الإعجاز، الذي تجاوز الطاقة والحدود.

عرض الإعجاز عند المتقدمين:

وسوف نكتفي بنموذج من بيان الأسلاف لأوجه إعجاز القرآن يساعد على استجماع الأفكار وتلخيص عصارة زبدة دراساتهم، ويمهد لتحليل جديد لهذه الأوجه.

وهذا النموذج للإمام المفسّر الكبير أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة 671هـ في مطالع كتابه العظيم في التفسير «**الجامع لأحكام**

القرآن». قال القرطبي رحمه الله تعالى(1):

ووجه إعجاز القرآن الكريم عشرة:

1 ـ منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها: لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وفي «**صحيح مسلم**» أن أُنَيساً أخا أبي ذَرٍّ قال لأبي ذر: لقيت رجلاً في مكة على دينك يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْرَاءِ الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، واللهِ إنه لصَادق وإنهم لكاذبون.

وكذلك أقرّ عُتْبَةُ بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ﴾ [فصلت: 1] فإذا اعترف عُتبة بن ربيعة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قطّ، كان في هذا القول مُقِراً بإعجاز القرآن، له ولضربائه من المُتَحَقِّقين بالفصاحة، والقدرة على التكلّم بجميع أجناس القول وأنواعه.

2 ـ ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

3 ـ ومنها: الجَزالَةُ التي لا تَصِحُ مِنْ مَخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [1] إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: 67] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 43] إلى آخر السورة.

قال علي بن محمد ابن الحصّار (ت 612 هـ): فمَن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصحّ في خطاب غيره، ولا يصحّ من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16]، ولا أن يقول: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: 13].

قال ابن الحصّار: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمةٌ كلَّ

(1) القرطبي، «**الجامع لأحكام القرآن**» 1/ 73 – 75.

سورة، بل هي لازمةٌ كلَّ آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميّز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة لا تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة «الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبارَ عن مُغَيَّبَيْن:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر وعَظَمَتِه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قول الحق: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤﴾ [المدثر: 11-14] ثم أهلك الله ـ سبحانه ـ ماله وولده، وانقطع نسله».

قال القرطبي في آخر «**تفسيره**» يفسِّرُ الآية: «الأَبْتَرَ: المقطوع ذِكْرُه من خَيْر الدنيا والآخرة». انتهى. قال نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي (ت 1044 هـ): «وهذا هو الصحيح. وقد حصل ذلك لمبغضي النبي ﷺ على أبلغ وجه. وفي الآية على هذا إشارة إلى غيب ثالث، هو عِزَّةُ الإسلام وانتشارُه، حتى يؤدي إلى بَتر مبغض النبي ﷺ وانقطاع ذكره، من خير الدنيا والآخرة.

4 ـ ومنها: التَّصَرُّف في لسان العرب على وجه لا يستقلّ به مخلوق، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

5 ـ ومنها: **الإخبار عن الأمور** التي تقدّمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله، مِنْ أُمّي ما كان يَتْلو مِنْ قَبْلِهِ من كتاب ولا يَخُطُّه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتَحَدَّوْه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين، فجاءهم ـ وهو أمّي من أُمَّةٍ أُمِّيَّة ليس لها بذلك علم ـ بما عرفوا من الكتب السالفة صِحّته، فتحققوا صِدْقَهُ.

قال القاضي أبو الطيب الباقِلّاني (ت 403 هـ): «ونحن نعلم ضرورة أن هذا ما لا سبيل إليه ولا عن تعلُّم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحمَلَة الأخبار، ولا مُتَردِّداً إلى المُتَعَلِّم منهم، ولا كان ممَّن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب

فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علمِ ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي.

6 ـ ومنها: الوفاء بالوعد، المُدرَك بالحِس في العَيان، في كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم: إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله ﷺ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، وإلى وعد مقيد بشرط كقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]، و﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65] وشبه ذلك.

7 ـ ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطَّلَعُ عليها إلّا بالوحي، فمِنْ ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ أنه سيُظْهِرُ دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33] الآية، ففعل ذلك.

وكان الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجاح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً، براً وبحراً، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55] وقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: 27]. وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 1-2].

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه.

8 ـ ومنها: ما تضمّنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

9 ـ ومنها: الحِكَمُ البالغة التي لم تجرِ العادة أن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

10 ـ ومنها: **التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً** من غير اختلاف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. انتهى كلام القرطبي.

وبالنظر في هذه الأوجه العشرة نجد أن إعجاز القرآن يتنوع تنوعاً واسعاً شاملاً للأسلوب وللمضمون أي المعنى، مما يجعل إعجازه مُتَنَاوِلاً كُلَّ أنواع البشر: مَنْ كان مُمَيِّزاً للكلام البليغ والأبلغ، ومن لم يُرزَق تلك الموهبة، وإن كانت الحُجَّة تلزم هذا النوع من الناس بشهادة أهل الموهبة الفنية والذوق الأدبي، من الفصحاء العقلاء، والبلغاء المراجيح الألباء.

لكن إذا أُفْحِمَ هؤلاء القاصرون بمضمون القرآن، وبما اشتمل عليه من المعاني لم يبقَ في الإعجاز أبلغ ولا أعظم من ذلك.

عرض الإعجاز عند المعاصرين:

وقد عني العلماء المعاصرون والباحثون المُحْدَثُون بتحقيق البحث في أوجه إعجاز القرآن مستفيدين من دراسات القدماء ومن نتائج بحث الحدثاء، وقدموا دراسات متوالية تنقِّح كلُّ دراسة الدراسة التي قبلها وتضيف إليها ما ولَّدته قريحة كل دارس جاء بعدها، وكان أول المشاهير في العصر الحديث علامة الأدب مصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «**إعجاز القرآن**»، ثم جاء البحاثة المحقق الدكتور محمد عبد الله درّاز (ت 1377 هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقدّم دراسات متعددة عن إعجاز القرآن كان أشهرها كتابه «**النبأ العظيم**»، الذي تميّز بنظرات جديدة في الموضوع، ثم جاء معاصره العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني (ت 1367 هـ)(1) فنقَّح القول في أوجه إعجاز القرآن وأفاد من دراسات الدكتور درّاز واستكمل دراسته، فجاءت دراسة عصرية وافية، اقتبس منها الدارسون، وأفادوا من نتائجها، وعُنِي الدكتور حسن ضياء الدين عتر في كتابه «**المعجزة الخالدة**»(2) بتنقيحها والبناء عليها فجاء عمله بذلك أتمّ وأوفى.

---

(1) في كتابه «**مناهل العرفان في علوم القرآن**» 2/ 205 وما بعد إلى ص: 308، وبلغت أوجه إعجاز القرآن عنده أربعة عشر وجهاً، عدا ما يتضمنه بعضها من خواص معجزة، أدمجها في بعض الأوجه.

(2) للاستزادة انظر ص: 225 – 388.

وسنقدم فيما يلي خلاصات ونتائج مستفيدين من هذه الدراسات مع الإيجاز الشديد مراعاة لمقتضى المقام في هذا الكتاب:

القسم الأول من أوجه إعجاز القرآن:

أسلوب القرآن الكريم

هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن فيه أعظم جوانب الإعجاز في القرآن، وإن كان قد يخفي معنى عِظَمِه على كثير من الناس، والسبب في عظمة هذا الوجه أنه هو الذي به كان القرآن قرآناً، وأن المنهج البياني المعجز للقرآن هو سمة عامة لجميع القرآن الكريم، أما الأوجه الأخرى فيوجد الوجه منها في بعض الآيات دون الآخر، مثل أخبار الغيب، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي وهكذا.

وهذا الوجه يدركه العرب، وهم أول من يُخَاطَب به وإذا عجزوا هم عنه، فغيرهم أعجز وأعجز، لكن جلال الإعجاز في هذا الكتاب لا يقتصر على ذلك بل إنه يشمل أوجهاً أخرى يدرك الإعجاز فيها كل من يفقه معاني الكلام، ولو لم يكن له في ساحة البيان جولات.

وقد أطال الدارسون القدماء والمُحْدَثون في بيان خصائص أسلوب القرآن الكريم، ونلخص منها هذه الجوانب فيما يلي:

الوجه الأول: خاصيَّة تاليف القرآن الصَّوتي في شكله وجوهره:

وهي خاصية بارزة عُنِيَ بها بعض المتأخرين، وصاغها نظرية في إعجاز القرآن الموسيقي، وهو الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي (ت 1356 هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1].

أما خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله: فهي أول ما يسترعي سامع القرآن الكريم عن بُعْد بحيث يسمع فيه جملة الحركات والسكنات، والغنّات والمدّات وهكذا... فإن السمع يجد نفسه إزاء لحن غريب عجيب لا يجده في كلام آخر، هو لحن فرد اختص به القرآن لا يوجد في الموسيقى ولا في الشعر، وذلك أنك تسمع

---

(1) في كتابه القيم «**إعجاز القرآن**».

القصيدة من الشعر فإذا هي تتّحد فيها الأوزان بيتاً بيتاً وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أصداؤها وتذهب مذهباً متقارباً، فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها إذا أعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوّع ومُتَجدِّد، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم.

وأما جوهر تأليف القرآن الصوتي: فَيَكْمُنُ في نظم حروفه ورصفها وترتيب أوضاعها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر حرف استعلاء وغيره حرف شدة أو رخاوة، وهكذا، ترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في هذا التناغم الموسيقي المعجز، الذي يجعل منه القرآن قالباً لما حمله من معاني الرسالة وحِكَمِها وأحكامها، وعقائدها وقواعدها، ومواعظها وزواجرها، وما امتاز به أسلوبها في عرض هذه المعاني من سائر الخصائص المعجزة.

الوجه الثاني: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى:

وهما نهايتان في اتجاهين متضادَّين، لا يُقْبِل المرء على إحداهما إلّا ابْتَعَد عن الأخرى، ذلك أن البليغ إما أن يؤديَ مراده جملة مختصراً، مُقِلّا من الألفاظ فلا بد أن يحيف على المعنى قليلًا أو كثيراً، وإما أن يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه، فلا يجد بداً من أن يمدّ في نفسه مداً، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة.

ولئن وُفق البليغ لتقريب هاتين الغايتين تقريباً ما في جملة أو جملتين، فلا يلبث أن يدركه الكلال والإعياءُ، وضعفُ الطبع الإنساني فلا يسترجع قوته إلا في الشيء بعد الشيء، كما تصادف في التراب قطعة من التبر هاهنا وقطعة هنالك، فتقول هذا نفيس جيد، وهذا أنفس وأجود... وقد أجمع نقّاد الشعر والنثر على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة، ثم وراء ذلك الوسط والرديء والغثّ والمستكره.

أما القرآن الكريم فقد جاء البيان فيه مقدراً أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بالإسراف ولا بالتقتير، فهو يؤدي لك الصورة وافية نقية لا يشوبُها شيء مما هو غريب عنها، ولا يشذ عنها شيء من عناصرها وكمالها، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، كما

قال الإمام أبو بكر الباقِلاني (ت 403 هـ): «محاسن تتوالى، وبدائع تترى».

ولنزيدك إيضاحاً في هذا فخذ ما شئت من القرآن، واحْصِ كلماته عَدًّا، ثم احصِ مثل عددها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن المصحف، وانظر ما حواه هذا الكلام من المعاني، وقايسه إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها من غير القرآن أو يمكن أن تبدِّلها بأخرى غيرها دون إخلالٍ بغرض قائله؟ وانظر مقابل ذلك أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدِّلها من القرآن؟؟ لما وجدت لذلك سبيلاً في القرآن، بل إن كتاب الله تعالى ـ كما قال الإمام ابن عطية[1]: «لو نُزِعَتْ منه لفظة ثم أُدِيرَ لِسانُ العَرَبِ في أن يُوجَدَ أحسنُ منها لم يوجد»، بل هو كما وصفه الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

الوجه الثالث: خِطابُ العامة وخطاب الخاصّة:

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لَنَزَلْتَ بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامّة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك ـ إنْ أردتَ أن تعطيَ كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك ـ أنْ تخاطبَ كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أنَّ جملة واحدة تُلْقَى إلى العلماء والجُهَلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك، فيراها كل منهم مُقَدَّرةً على مِقْياسِ عَقْلِهِ وعلى وَفْقِ حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامّة والخاصّة على السواء، ميسّر لكل مَن أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

الوجه الرابع: إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

في النفس الإنسانية قوّتان: قُوَّة تفكير، وقُوَّة وُجْدان، وحاجة كل واحدة منهما

(1) في مقدمة تفسيره الجليل «**المحرر الوجيز**» 1/ 39.

غير حاجة أختها: فأما إحداهما فَتُنَقِّبُ عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفى لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلامَ العلماء والحكماء، وعرفنا كلامَ الأُدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غُلُوًّا في جانب، وقصوراً في جانب، فأما الحكماء فإنما يؤدُّون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجَّه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك، فتراهم حين يقدِّمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعُرْيٍ ونُبُوٍّ عن الطباع، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور في نفسك، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيًّا أو رشداً، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً، فتراهم جادّين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يبكون، ويطربون وإن كانوا لا يطربون: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 224-226].

هذا مقياس تستطيع أن تتبيَّن به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب، فإذا رأيتَهُ يتّجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلتَ: هذا ثمرة الفكرة، وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها أو بسطها، واستثارة كوامن لذّاتها أو ألمها، قلت هذا ثمرة العاطفة، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرّغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأما أن أسلوباً واحداً يتّجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية.

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى

هؤلاء الشعراء المرحين؟

ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حَيْثُما توجَّهْتَ، ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمه وعبره؟

أولا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: 13-14].

الوجه الخامس: تآلف الألفاظ والمعاني:

التآلف في الألفاظ هو ألا تكون بينها ثغرة في المخارج، ولا في النغم بل تتآلف وتتآخى في نسق واحد.

ويقول الإمام أبو بكر الباقِلّاني (ت 403 هـ) في هذا: «واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه، وهو أدقّ من السحر وأهول من البحر، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ في موضع وتَزِلُّ عن مكان لا تزال فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها، وتراها في مكانها، وتجدها غير منازعة في أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت في محل نفار، ومرمى شرار، ونابية عن استقرار...»[1].

وأما التآلف في المعاني: فهو ألا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يليه، وأن تتآلف الألفاظ والمعاني، وما تثيره من الصور والأَخْيِلَة، وما تستدعيه من معان

(1) «**إعجاز القرآن**» للباقلاني، ص: 280.

يستلزم بعضها بعضاً، فيتألف من ذلك علم كثير، وأفهام زاخرة.

وهذه الخصوصية هي كغيرها أيضاً مستوفاة في جميع القرآن، وفي كل آية منه، لا يحتاج الدارس والباحث إلى اختيار وانتقاء، بل كيفما قلّب المُصحف ونظر بعين البصيرة المدركة وجد أي خصوصية يطلبها على أعظم منازل الكمال الذي لا يطيقه إنسان، ووجد أسلوبه ينفذ من كافة أقطار النفس، ويتغلغل في أعماق الأفئدة، فيحملها على الخشوع والإخبات، لما في طياته من قوة وهيمنة تدّل على تنزله من علو، وصدوره من عظمة الألوهية وشرف الربوبية، وقدرة الإلٰه الحق ذي الجبروت.

فالقرآن بنفسه يدّل على قدر متكلمه ويخبر عن مقام منزله عَزَّوَجَلَّ ، كما ينبه على عظيم شأنه تبارك وتعالى، فيثبت لكل عاقل صحة رسالة محمد ﷺ، وصدق نبوته[1].

القسم الثاني من أوجه إعجاز القرآن:

الإعجاز بالمضمون

يمتاز هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن بأنه معجزة عقلية، يَعْقِلُها ويُدْرِكُها كُلُّ مَنْ يفهم الخطاب ويرد الجواب، سواء كان يملك ذوقاً أدبياً فنياً أم لا يملك، بل سواء كان عربياً أو أعجمياً، وذلك من غاية كمال الإعجاز في القرآن الكريم. ونقتصر على مهمات من أوجه إعجاز المضمون في القرآن فيما يلي:

الوجه الأول: الإخبار عن الغيب:

والقرآن حافل بأنواع الإِخْبار عن الغيب، غيب المستقبل، وغيب الحاضر، وغيب الماضي، مما يحتاج تفصيله لتأليف واسع كبير، لذلك سنكتفي هٰهنا بإلماعة ولمحة وجيزة لضيق المقام عن التوسع فضلاً عن الاستيفاء.

أولاً: الإخبار عن غيب المستقبل:

في القرآن تنبؤات كثيرة جداً عن أمور ستقع في المستقبل، لعل أهم ما نذكر

(1) انظر في خصائص أسلوب القرآن هذا: كتاب **«النبأ العظيم»** لمحمد عبد الله دراز، ص: 95 و**«مناهل العرفان»** للزرقاني 2/ 215، و**«بينات المعجزة الخالدة»** ص: 302 - 307 و317 - 320. و**«إعجاز القرآن»** للباقلاني، وكتاب **«المعجزة الكبرى»**، لمحمد أبو زهرة ص: 133 - 135.

منها تلك الأخبار المتعلقة بأمور مصيرية، إذا لم تتحقَّق بِدِقَّة كاملة أدّت إلى انتقاض دعوة القرآن من الأساس، ومن ذلك:

1 ـ إخبار القرآن في مكة والمسلمون في أقَلّ القلّة وأشدّ الضعف، عن تحوُّل المؤمنين إلى القوة وانتصارهم، وهزيمة المشركين، وذلك في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: 44-45].

فنبَّأ القرآن بهزيمة جموع المشركين في وقتٍ لا مَجال فيه للتفكير بالحرب، لغاية ما كان عليه المسلمون من الضعف والقلة، لذلك تساءل عمر: أيُّ جَمْعٍ يُهْزَم؟ أيُّ جَمْعٍ يُغْلَب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول الله ﷺ يثِبُ في الدرع وهو يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفتُ تأويلَها[1].

وفي الحديث الآخر عن ابن عباس في يوم بدر قال: وهو ـ يعني النبي ﷺ ـ في الدرع فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: 45-46][2].

2 ـ إخباره بوقوع الجدب على المشركين وكشف الله إياه عنهم وعودهم إلى الكفر:

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: 10-16].

فأخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمرين: رفع العذاب عن قريش بدعائهم وعدم اتعاظهم بذلك وعَوْدِهِم إلى الكفر، وهزيمتهم يوم البطشة الكبرى، وهو يوم بدر.

كما في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: «.... **إن رسول الله ﷺ لما رأى مِنَ الناسِ إدباراً فقال: اللهم سَبْعٌ كَسَبْعِ يوسُفَ، فأخذتهم سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ**

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم.

(2) أخرجه البخاري 6/ 143 - 144. وانظر ابن كثير في «تفسيره» سورة القمر 7/ 456 - 457.

شَيءٍ، حتى أَكَلُوا الجُلُودَ والمَيْتَةَ مِنَ الجُوعِ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئتَ تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: 10-11] إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ قال: أفيكشف عذاب الآخرة ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فالبطشةُ الكبرى يَوْمُ بدر...» متفق عليه(1).

3 ـ إخباره عن عودة النصر للروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس حتى اضطر ملك الروم للالتجاء إلى القسطنطينية.

وقد فرح المشركون بذلك لكون الفرس مجوساً يعبدون النار والأصنام، والروم أهل كتاب، فأنزل الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: 1 ـ 4].

وهذا مثال مشهور من أخبار الغيب بالقرآن، وقد اشتمل على خبرين خطيرين:

أولهما: انتصارُ الروم على الفرس في فترة وجيزة جداً بالنسبة لتغيّر ميزان القوى بين الدول، ولا سيما في ذلك العصر، وخصوصاً بعد هزيمة ساحقة منكرة، وقد تحقق ذلك في سبع سنين من تاريخ الحادث ونزول القرآن فيه.

ثانيهما: احتفاف ذلك بتغيُّر ميزان القوة لمصلحة المسلمين وانتصارهم على المشركين وكان ذلك يوم بدر، وفرح المؤمنون بنصر الله لهم، كما فرحوا بنصر الروم وهم أهل كتاب على الفرس وليس لهم كتاب(2).

ثانياً: الإخبار عن غيب الحاضر:

في القرآن أخبار كثيرة عن مُغَيَّبات حدثت في زمن النبي ﷺ ولا سيما ممّا كان

---

(1) البخاري في «الاستسقاء» 2/ 26، ومسلم بلفظه في القيامة (الدخان) 8/ 130 - 131.

(2) انظر: «**النبأ العظيم**» ص: 41 - 42، و«**مناهل العرفان**» 2/ 265 - 267، و«**المعجزة الخالدة**» ص: 340 - 344.

يُبَيِّتُه الأعداء والمنافقون، وقد عُنِيَتْ سورة التوبة بكشف دخائل المنافقين ودسائسهم، وفضح مؤامراتهم حتى سميت الفاضحة.

ومن هذا النوع من الأخبار أيضاً هذان المثالان:

1 ـ مؤامرة المشركين في بعض الغزوات على المسلمين أن يعطوهم الهدنة التي اعتادوها لأجل الصلاة، ويفاجئوهم بالهجوم عليهم غدراً وهم يُصَلُّون، فأنزل الله تعالى بيان كيفية صلاة الحرب بما فيه الوقاية من هذه المكيدة، وقال فاضحاً نوايا العدو: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: 102].

2 ـ ائتمر المنافقون بِتَوجُّه من اليهود فَبَنَوْا مسجداً بجوار مسجد قباء، زعموا أنه للصلاة وللمساكين يأوون إليه، وطلبوا من النبي ﷺ أن يُصلّيَ فيه، فأنزل الله تعالى يكشف خبيئة نفوسهم الخبيثة:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: 107-108][1].

ثالثاً: اخبار الغيب الماضي:

وذلك كثير جداً في القرآن يتضمن الإخبار عن حوادث قديمة وقعت من قبل، وقصص الأنبياء وأُمَمِهم[2].

الوجه الثاني: الإعجاز التشريعي:

إن القرآن قد جاء بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من الله ووحي منه تبارك وتعالى، وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها:

---

(1) وقد عد صاحب «**مناهل العرفان**» الأخبار عن الملائكة والجن من أنباء الغيب الحاضر، ونحن نرى أنها تعتبر كذلك بالنسبة لمن سبق منه الإيمان، لا سيما إن قورنت بما عند الأمم الأخرى من علوم الغيب، أما غير تلك الحالة فهي من الغيبيات التي يتوقف الإيمان بها على أصل الإيمان بالله ورسله.

(2) انظر كتاب «**بينات المعجزة الخالدة**» ص: 321 – 358.

1 ـ إنها جاءت على لسان رجل أُمّي وفي أُمَّة أُمِّية، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها، لا يخطر على بال أحد منهم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري.

2 ـ إنه تشريع شامل وكافل لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية، والاجتماعية والأسرية، والدولية. . .

3 ـ إنه تسامى على كل قانون عرفته الأمم قديمها وحديثها، حتى أقرَّت المجامع القانونية الدولية الفقه الإسلاميّ مصدراً أساسياً تقتبس منه القوانين، وإن القوانين الحديثة في تطوّرها تتسامى لتقترب من الفقه الإسلامي.

قال فضيلة العلاّمة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة (ت 1395 هـ) رَحِمَهُ الله: «ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد ﷺ، بل هي من عند الله، وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجلات الإسلامية بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة، ونشرتها، وترجمتها إلى الفرنسية والإنكليزية، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أُمّي لا يقرأ ولا يكتب وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى.

وكتبنا بحثاً وَازنَّا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة (الميراث)، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكَوَّنَ في نحو ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتّار، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده، بل هو من عند الله تعالى.

والأوروبيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقرر لهذا أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله تعالى العليم الخبير»[1].

---

(1) انظر كتاب «**المعجزة الكبرى**» لمحمد أبو زهرة ص: 95، وانظر دراسات مفصّلة حول هذا الموضوع وبيان تفوّق أنظمة القرآن ص: 454 – 547 من كتابه هذا.

الوجه الثالث: اتساق نظريات القرآن وأحكامه:

جاء القرآن الكريم بهداية كاملة شاملة، كافية وافية في جميع الشؤون المختلفة المتنوعة، وزاد عدد آياته على ستة آلاف آية تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات، وجاء ذلك كله مُتَّفِقاً في معانيه وأحكامه، متسقاً في أسلوبه وإعجازه، فكان ذلك دلالة على أنه كلام الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وقد فصّل الإمام الغزالي (ت 505 هـ) وجه الدلالة بهذا تفصيلاً وافياً بإيجاز جميل فقال[1]: «الاختلاف لفظ مشترك بين معان، والمراد هنا نفي الاختلاف عن ذات القرآن، يقال: هذا كلام مختلف، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة، أو هو مختلف الدعوى، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا، أو هو مختلف النظم، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه.

وكلام الله منزّه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث والسمين، مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين.

وكلام الآدميين تتطرّق إليه هذه الاختلافات، إذ كلام الشعراء والمُتَرَسِّلين إذا قيس عليه وُجِد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين، ولا يتساوى رسالتان وقصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات سخيفة، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة، لأن الشعراء والفُصَحاء في كل واد يَهِيمُون، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً وتارة يَذُمُّونه ويُسَمُّونه ضعفاً، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة وتارة يذمونها ويسمونها تهوّراً، ولا ينفك كلام الآدمي عن هذه الاختلافات، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالأحوال.

والإنسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه وتتعذر عليه عند الانقباض.

---

(1) كما نقل عنه السيوطي في «**الإتقان**» 2/ 124 بتصرُّف يسير.

وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة، فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن فيتكلّم على غرض واحد ومنهاج واحد، ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

الوجه الرابع: تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة:

وهو وجه هام، ذهب عنه الناس، فلا يعرفه إلّا الشاذ من آحادهم، وذلك هو صنيعه العجيب في القلوب، وتأثيره العميق في القلوب(1).

لو أن إذاعات عالمية أو صحفاً كبرى أخبرت عن دويلة صغرى أنها أخذت بكتاب لديها فارتقت من دحض الضعف والتخلف والجهل إلى أوج القوة والتقدم والعلم حتى اكتسحت الدولتين الأعظم لاعتبرنا ذلك حيلة إذاعية، أو خدعة صحفية، لأن هذا يتنافى مع ما جرت به العادة وقوانين الاجتماع، وقد كان العرب أدنى من ذلك حالاً وأشد تخلفاً، وإذا بهم بهذا القرآن وتأثيره فيهم انقلبوا حتى كانوا كما سجّل القرآن نفسه في مدحهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وهكذا ظل القرآن مدى التاريخ كتاب الهداية، يؤمن بسببه الكافر، ويهتدي الضال، ويتوب الفاسق ويثوب العاصي، مما لا تجده من التأثير العميق لكتاب آخر قط.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

الإعجاز العلمي في القرآن(*)

كما أن القرآن معجز في مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الالتزام بها، وفي مجموع العبادات التي يدعو الناس إلى ممارستها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته المبهرة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها... وفي استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، معجز في أسلوبه التربوي، وخطابه النفسي، وفي إنبائه بالغيب،

(1) كما ذكر الخطابي في رسالته «**بيان إعجاز القرآن**» ص: 64.

(*) انظر كتاب «**حقائق علمية في القرآن الكريم**» لزغلول النجار، ص: 1 - 26.

فهو معجزٌ أيضاً في إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم».

ويُقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، التي لم يتمكن العلم الكسبي من الوصول إلى فهم شيء منها إلّا بعد قرون متطاولة من تنزّل القرآن الكريم، تزيد عن العشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق سبحانه وتعالى.

وفي إثبات ذلك تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام هذا الإلٰه الخالق، وتصديق النبي والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته وفي التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفخر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه. وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

من الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، في عصر التقدّم العلمي والتقني الذي نعيشه، هو من مواقف التحدّي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أُنزل من قبل ألف وأربعمائة وثلاثين سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين ـ وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق العلم الكوني، ما لم يتوصل إليه الإنسان إلّا بعد مجاهدات طويلة، استغرقت عشرات الآلاف من العُلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركّز في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين بصفة خاصة. والمتحدّي لا بد وأن يكون واقِفاً على أرضيَّة صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في هذا

المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدّي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرُّض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعادها الثلاث:

1 ـ **خلق الكون.**

2 ـ **خلق الحياة.**

3 ـ **خلق الإنسان.**

وذلك بسبب أن عملية الخلق عملية غيبية لم يشهدها أحد من الإنس أو الجن وعلى ذلك فإنها لا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من الآيات التي منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19-20].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190-191].

والجمع بين هذه الآيات الكريمة (وأمثالها كثير في كتاب الله) يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض، وخلق الحياة وخلق الإنسان قد تم في غيبة كاملة من الوعي الإنساني، ولكن الله من رحمته قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكانياته المحدودة ـ على الوصول إلى تصوّر ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات ولا

يمكن أن يرقى إلى معالم الحقيقة أبداً، لأن الحقيقة العلمية لا بدّ وأن تكون واقعة تحت حسّ الإنسان وإدراكه ـ على الرغم من محدودية ذلك ـ ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق (بأبعادها الثلاث) مرحلة التنظير أبداً، ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين، أم من الكفار، أو المشركين، أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟... وفي هذا الخضَمّ يبقى للمسلم نور من الله سبحانه وتعالى في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنة الرسول ﷺ، ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبارك عليه وعليهم أجمعين، ولم نتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكريمة التي تعرّض لها القرآن الكريم فلا يجوز أن يوظّف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حُسن فهم النص القرآني الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة، وأساليب التعبير فيها، وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ (إن وجدا)، وفهم الفرق بين العام والخاص، والمُطْلَق والمُقَيَّد، والمُجْمَل والمُفَصَّل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، وردّ بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر، لأن القرآن الكريم يُفسّر بعضُه بعضاً، كما يفسّره الصحيح من أقوال الرسول ﷺ. ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من

الأحاديث النبوية الشريفة المتعلّقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك، وذلك لحسن فهم النص القرآني الكريم.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعد.

7 ـ مراعاة قاعدة «أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

8 ـ عدم التكلُّف، أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية وذلك لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم عندنا من ذلك لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل علم آخر، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية كالروح والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وبعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، وأنها لا تحتاج هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ أمر فجائي منه ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي بين الكاف والنون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

وعلى الرغم من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى ـ من رحمته بنا ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بفناء الكون، وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسّر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة لأنها غيب من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلّا الله، ولأنها لن تتم بالسُنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية التي لا رجعة فيها في الاستشهاد على الإعجاز

العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث التي يمكن فيها توظيف الآية القرآنية الكريمة للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة على مقام الحقيقة.

12 ـ مراعاة التخصُّص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة، لأن هذا مجال تخصُّصي على أعلى مراحل التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطّي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة، بالإضافة إلى أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتتخطى هذه الآيات مساحة هائلة من العلوم الكسبية من علم الأجِنّة إلى علم الفلك، وما بينها من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية.

13 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم الكسبي إلى شيء منها بعد، انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وأنه كلّه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

14 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات المتاحة في زمانهم، وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

15 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي والتفسير العلمي للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به هنا «إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون» أما التفسير فهو «محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد» والمُعوّل عليه في ذلك نِيَّتهُ وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المُفَسِّر، ولا يمس جلال القرآن الكريم.

16 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك والتجرُّد له من كل غاية، وتذكُّر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»(1).

مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يلي:

أولاً: أن القرآن الكريم أُنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحده، وذلك لشمول الدلالة القرآنية، ولكلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: إن الدعوة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي السُنَّة النبوية المطهرة هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فُتِنَ الناسُ فيه بالعلم ومُعطياته فِتْنةً كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيوب؛ لأن هذه الأصول قد شُوِّهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً، ولم تعد مقنعة لهم، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين قدر الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سُنّة خاتم أنبيائه ورسله صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه، تحاول الحضارة المادية الغالبة، بما فيها من كُفر بَواح، أو شِرْك صَرَاح أن تَغْدو بقيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وماديتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظّف في ذلك كل ما توفّر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها.

وقد أسقط الأعداءُ من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية، في سلسلة من المؤامرات الطويلة، التي بدأت باحتلال غالبية الدول المسلمة، والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إسقاط دولة الخلافة الإسلامية، بعد إنهاكها وإضعافها حتى تمّ إسقاطها، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمسة وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتَنْصِيب أنماط من الحكم المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم

(1) أخرجه الترمذي في كتاب «**تفسر القرآن**» الحديث: 2950.

غرس كيان صهيوني غريب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحطة، والأخلاقيات المنهارة، لترسيخ تفتت الأمة، والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها، ولم يبق بأيدي أمة الإسلام في زمن الغربة الذي نعيشه إلا دينها، هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ من عباده ديناً سواه، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم، وأوضح وسائله لإقامة الحجّة على العباد في زمن العلم الذي نعيشه، وهو الإعجاز العلمي في كتاب الله، وفي سُنّته ﷺ.

رابعاً: أن كُلاً من الإسلام والمسلمين يَتَعَرّض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق، وهم في هجومهم هذا يُنكِرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوّة خاتم المرسلين ﷺ، في وقاحة وبجاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العامي لكتاب الله ولسُنَّة الرسول ﷺ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة البالغة، والمنطق السوي.

خامساً: أن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودُها تطوّر عِلْمِي وتِقْنِي مذهل، يَطْغَى أصحابُه ويُغريهِم بإفْناء وإبادةِ غيرهم، في غيبة الوعي الديني الصحيح والالتزام الأخلاقي والسلوكي الذي يرعى حقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها، والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله، وفي سنّة الرسول ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

سادساً: أننا معشر المسلمين قصَّرنا كثيراً في التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وقد كُلِّفْنا بذلك، ونحن نجني ثمار ذلك التقصير كله اليوم: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وأراكان، وجنوب الفيلبين، والسودان والصومال، والعراق ولبنان وغيرهم، وحصاراً لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلالاً عسكرياً لكل من أرض فلسطين ودول الخليج العربي، وأفغانستان وسبتة ومليلية وجزيرة ليلي، من الأراضي المغربية، والعديد من الجزر الآسيوية، ومطاردة المسلمين في كل مكان من أماكن العالم وإحكام التآمر عليهم.

سابعاً: أن في إثارة قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي سنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاض لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيع على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلّفت فيها الأمة مؤخراً تخلُّفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدَّمت فيها دول الكفر والشرك والضلال تقدّماً مُذهِلاً، حتى أصبح كَمّ المَعارِف المُتاحة يتضاعف كل خمس سنوات تقريباً، وتِقَنِيّاتها تتجدّد مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهُوّة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزاد اتّساعًا وعُمْقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوّة عمقاً واتساعاً.

نماذج من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

من الإشارات القرآنية إلى علوم الأرض

يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى الكون ومكوناته (السمٰوات، والأرض، وما بكل منهما من صور الأحياء والجمادات، والظواهر والعمليات المختلفة). وتأتي هذه الآيات في ثلاث مقامات أساسية مُحدَّدة على النحو التالي:

1 ـ مقام الاستدلال على الخالق العظيم من خلال التعرُّف على بديع صنعه في خلقه، وعلى إحاطة علمه، وبالغ حكمته، وطلاقة قدرته مما يشهد له (سبحانه) بالألوهية والربوبية المطلقة فوق جميع خلقه.

2 ـ مقام الاستشهاد على أن الخالق العظيم الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة بعثه من جديد، وكانت قضية البعث هي حجة الكافرين، والمُتَشَكّكين، والمُلْحِدين عبر التاريخ لعجزهم عن فهم طلاقة القدرة الإلٰهية.

3 ـ مقام الاستدلال على وحدانية الخالق العظيم ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا مُنازع ولا صاحبة ولا ولد ـ لأنه قد خلق جميع خلقه في زوجية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) حتى يبقى الله ـ سبحانه وتعالى ـ منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق كافَّة خلقه.

وتبقى هذه الآيات الكونية بالإضافة إلى دلالاتها الأساسية الثلاث ـ خطاباً لأهل عصرنا ـ الذين فتنوا بالعلم والتقنية وبمعطياتهما فتنة كبيرة ـ خطاباً يثبت لكل ذي بصيرة سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون قبل وصول الإنسان

إليها بقرون متطاولة، ولا يمكن لعاقل أن يتصوّر مصدراً لهذا العلم غير الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ حيث لم يكن لأحد من الخلق أدنى إلمام بتلك الحقائق وقت تنزل القرآن الكريم (في مطلع القرن السابع الميلادي) ولا لقرون متطاولة من بعده، وأغلب تلك الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرن العشرين، ولم يتم الوصول إليها إلا بعد مجاهدة استغرقت جهود آلاف من العلماء على مدى عشرات من العقود.

وهذا السبق القرآني بالعديد من حقائق الكون هو الدليل المادي الملموس لأهل عصرنا بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومُعَلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

وانطلاقاً من ذلك يتضح لنا أن هذه الآيات الكونية لم ترد في القرآن الكريم من قبيل الإخبار العلمي المباشر وذلك لسببين واضحين:

أولهما: أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية للإنسان في القضايا التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة إما لكونها من أمور الغيب المطلق الذي لا يمكن للإنسان الوصول إليه بحواسه المحدودة وقدرات عقله المحدودة من مثل قضايا العقيدة ومن أسسها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

أو لكونها من قضايا العبادة، والعبادة بمفهومها اللغوي تعني قيمة الخضوع لله بالطاعة، ولا توجد طاعة بغير أوامر. فإذا لم يتلقَّ الإنسان بياناً من الله تعالى يحدد له كيفية العبادة، فقد يضطر إلى الابتداع والابتداع البشري في العبادة مرفوض، فلا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية أن يبتدع لنفسه نمطاً من العبادة ثم يفترض على الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبوله، لأن الله تعالى يُحِبُّ أن يُعْبَدَ بما أَمَرَ.

أو لكونهما من ضوابط السلوك من مثل قضايا الأخلاق والمعاملات، والتاريخ يؤكد لنا فشل الإنسان دوماً في كل محاولاته التي يبذلها من أجل وضع ضوابط للسلوك من ابتداعه هو، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

وثانيهما: أن التعرف على الكون، واستقراء سنن الله فيه، وتوظيف كل ذلك في حسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، وإقامة عدل الله فيها هي من واجبات

الإنسان التي تركت لاجتهاده جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، نظراً للطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المنطلقة من محدودية القدرات البشرية، ولولا اطراد السنن الإلٰهية في الكون وانتظامها، ما تمكن الإنسان من إدراك شيء منها.

ولمّا كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، الذي أبدع هذا الكون بعلمه، وحكمته، وقدرته، فلا بدّ وأن تكون كل كلمة فيه حقاً مطلقاً سواء في جانب الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، أو في جانب القصص القرآني، أو التنبؤات المستقبلية، أو في جانب خطابه إلى النفس الإنسانية، وأسلوبه التربوي الفريد في النهوض بها، أو في إشاراته إلى الكون ومكوناته وظواهره وسننه، وأسس خلقه وإبداعه، وطرائق إفنائه وإعادة بعثه، أو في جانب ألفاظه وجمله وتراكيبه، وفصاحة أسلوبه، وبلاغة نظمه، وتفرده بنمط في الصياغة لم تعرفه العرب من قبل: فلا هو بالنثر ولا هو بالشعر، وتحدّيه العرب ـ وهم في قمّة من قِمَم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ـ أن يأتوا بقرآن مثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، دون أن يتمكن عاقل من أن يتقدم بشيء من ذلك.

هذا كله وعشرات غيره يؤكد على دقّة كل حرف وكلمة وإشارة في القرآن الكريم بما في ذلك إشاراته إلى الكون ومكوِّناته وعملياته وظواهره، وهو الكتاب الذي أُنزل من قبل ألف وأربعمائة وثلاثين سنة على نبي أميّ ﷺ، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميّين مما يشهد له في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي الخاتم، والرسول الخاتم الذي تلقاه.

التأليف في إعجاز القرآن

1 ـ **«النكت في إعجاز القرآن»**: للرُّمّاني، أبي الحسن، علي بن عيسى بن علي (ت 484 هـ) طبع في دلهي بالهند، بتحقيق عبد العليم، 1353هـ / 1934م، وطبع بدار المعارف في القاهرة بتحقيق محمد خلف الله، وزغلول سلام ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) 1374هـ / 1955م.

2 ـ **«بيان إعجاز القرآن»**: للخطابي، أبي سليمان حمد بن محمد (ت 388 هـ) طبع في دلهي بالهند، بتحقيق عبد العليم 1353هـ / 1934م، وطبع مع الكتاب السابق.

3 ـ **«المعنى في إعجاز القرآن»**: للقاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي (ت 415 هـ) نشره أمين الخولي، بمكتبة وهبه في القاهرة 1396هـ / 1976م.

4 ـ **«دلائل الإعجاز في المعاني والبيان»**: أو **«إعجاز القرآن»** لعبد القاهر الجُرْجاني (ت 471 هـ) طبع بتحقيق محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومحمد محمود الشنقيطي، في القاهرة بمطبعة الترقي ومطبعة المنار في القاهرة 1319 ـ 1321هـ / 1901 و1903م، وطبع بمطبعة الفتوح الأدبية في القاهرة 1331هـ / 1912م، وطبع بتحقيق محمد بن تاويت بتطوان، بالمطبعة المهدية عام 1370هـ / 1950م، وطبع بتحقيق محمد رضوان الداية، ومحمد فايز الداية، في دمشق بدار قتيبة 1402هـ / 1982م وصوّرت دار المعرفة طبعة محمد عبده ومحمد رشيد رضا عام 1401هـ / 1981م.

5 ـ **«الرسالة الشافية في إعجاز القرآن»**: له أيضاً، طُبعت مع (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للجرجاني، والخطابي، والرماني)، بتحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، بدار المعارف في القاهرة 1375/ 1955 م، وله **«الشرح الصغير»** وهو شرح كتاب الواسطي في إعجاز القرآن (ذكره السبكي في **طبقات الشافعية** 5/ 150).

6 ـ **«البرهان في متشابه القرآن»**: لشَيْذَلَة، أبي المعالي، عزيزي بن عبد الملك الشافعي (ت 494 هـ) حقّقه ناصر بن سلمان العمر، كرسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض 1402هـ / 1982م (**أخبار التراث العربي** 7/ 24).

7 ـ **«إعجاز القرآن»** أو **«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»** للإمام فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) طبع بمطبعة الآداب في القاهرة 1317هـ / 1899م و1377هـ / 1909م، وطبع بتحقيق زغلول سلام، ومحمد هدارة، بمنشأة المعارف في الإسكندرية 1394هـ / 1973م وطبع بتحقيق إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات، بعمّان عام 1405هـ / 1985م.

8 ـ **«التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن»**: لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت 651 هـ) طبع بتحقيق خديجة الحديثي، وأحمد مطلوب بطبعة العاني في بغداد 1385هـ / 1964م.

9 ـ **«تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن»**: لابن أبي الأصبع، زكي الدين أبي محمد عبد العظيم (ت 654 هـ)، طبع بتحقيق حفني محمد

شرف، بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة 1383هـ / 1963م.

10 ـ **«الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»**: لعبد العزيز عز الدين بن عبد السلام السلمي الدمشقي (ت 660 هـ) طبع بالمطبعة العامرة في إسطنبول 1313هـ / 1895م، وبالمدينة المنورة بالمكتبة العلمية عام 1383هـ / 1966م وصوّرته دار الفكر بدمشق، ودار المعرفة 1407هـ / 1987م ودار البشائر الإسلامية في بيروت 1407هـ / 1987م.

11 ـ **«الطراز في علوم حقائق الإعجاز»** أو **«الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»**: للمؤيد بالله عماد الدين يحيى بن حمزة العلوي (ت 745 هـ) طبع بتحقيق سيّد علي المرصفي، بالقاهرة عام 1332هـ / 1914م وصُوِّر بدار الكتب العلمية في بيروت عام 1401هـ / 1981م.

12 ـ **«تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن»**: للمهايمي علي بن أحمد بن علي الهندي (ت 835 هـ) طبع بدلهي عام 1286هـ / 1867م وبمطبعة بولاق في القاهرة 1295هـ / 1876م، وصور بعالم الكتب في بيروت عن السابقة 1401هـ / 1981م.

13 ـ **«معترك الأقران في إعجاز القرآن»**: لجلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) طبع بتحقيق علي محمد البجاوي، بدار الفكر العربي في القاهرة الجزء الأول عام 1389هـ / 1969م، والثاني 1390هـ / 1970م، والثالث 1393هـ / 1973م.

14 ـ **«البرهان في إعجاز القرآن»**: لأحمد فوزي الساعاتي (كان حياً قبل 1342هـ) طبع بمطبعة الترقي في دمشق 1343هـ / 1924م.

15 ـ **«إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»**: لمصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ) طبع بمطبعة المُقَطَّم في القاهرة 1348هـ / 1928م وطبع بالمطبعة الرحمانية في القاهرة بتحقيق محمد سعيد العريان 1349هـ / 1929م، وأعيد طبعه بمطبعة الاستقامة بالقاهرة عام 1360هـ / 1940م وبالمطبعة التجارية الكبرى في القاهرة 1384هـ / 1965م، وصور بالأوفست بدار الكتاب العربي في بيروت 1400هـ / 1980م.

16 ـ **«إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»**: لبديع الزمان سعيد النورسي (ت

1387 هـ) طبع بمطبعة النور في أنقرة 1378هـ / 1958م، وطبع بدار العربية في بيروت 1393هـ / 1973م.

17 ـ «**المعجزة الكبرى في القرآن: نزوله، كتابته، وجمعه**»... لمحمد أبو زهرة بدار الفكر العربي في القاهرة 1390هـ / 1970م.

18 ـ «**الاهتزاز عن مفتريات من الإيجاز**»: لمحمد بن محمد مهدي الخالصي، طبع بطهران 1340هـ / 1941م.

19 ـ «**مقالات أهل الفرق وجمهرة المسلمين في إعجاز القرآن**»: لأحمد محمد الحجاز (بحث مقدم إلى جامعة الأزهر عام 1353هـ / 1934م).

20 ـ «**في إعجاز القرآن**»: لمحمد السيد حكيم، بحث مقدم إلى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام 1364هـ / 1945م.

21 ـ «**من روائع الإعجاز في القرآن الكريم**»: لعبد الفتاح شكري عياد (رسالة ماجستير من جامعة القاهرة كلية الآداب عام 1367هـ / 1948م).

22 ـ «**إعجاز القرآن والاكتشافات الحديثة**»: لعبد الرحمن شاهين (طبع بمطبعة الإسماعيلية الكبرى 1370هـ / 1950م).

23 ـ «**المعجزة الخالدة في وجوه إعجاز القرآن وشرح أسراره**»: لهبة الله الشهرستاني (طبع بمطبعة النجاح في بغداد 1373هـ / 1953م).

24 ـ «**منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه**»: للصاوي الجويني مصطفى (رسالة ماجستير في كلية الآداب في جامعة الإسكندرية عام 1375هـ / 1954م) وطبع بمنشأة المعارف في الإسكندرية 1379هـ / 1959م.

25 ـ «**معجزة القرآن في وصف الكائنات**»: الجزء الأول في الخلق العام للسموات والأرض لحنفي أحمد (طبع بمطبعة لجنة البيان العربي في القاهرة 1374هـ / 1954م).

26 ـ «**تاريخ فكرة إعجاز القرآن**»: لنعيم الحمصي (طبع بمطبعة الترقي في دمشق 1375هـ / 1955م وطبع بمؤسسة الرسالة في بيروت 1401هـ / 1980م).

27 ـ «**إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض**»: لمحمد محمود إبراهيم (طبع بالقاهرة 1375هـ / 1955م).

28 ـ «**إعجاز القرآن في مسألة اللؤلؤ والمرجان**»: لعمر أحمد الملباري (طبع بدار الفكر الإسلامي في دمشق 1379هـ / 1959م).

29 ـ «**معجزة القرآن**»: لمحمد جابر (طبع بالمركز الثقافي في لندن 1383هـ / 1963م).

30 ـ «**إعجاز القرآن**»: دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ـ لعبد الكريم الخطيب (طبع بدار الفكر العربي في القاهرة 1387هـ / 1964م، وصور بدار المعرفة في بيروت 1396هـ / 1975م).

31 ـ «**الإعجاز في دراسات السابقين**»: له أيضاً، طبع في القاهرة عام 1394هـ / 1974م، وبيروت بدار المعرفة عام 1401هـ / 1981م (**معجم الدراسات القرآنية**: 66).

32 ـ «**فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن**»: لفتحي عامر أحمد بهواشي عامر (طبع بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة عام 1395هـ / 1975م وهو في الأصل رسالة ماجستير من كلية العلوم في جامعة القاهرة عام 1386هـ / 1966م).

33 ـ «**القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين**»: لمحمد صادق عرجون (طبع بمكتبة الكليات الأزهرية في القاهرة 1388هـ / 1966م).

34 ـ **إعجاز القرآن**: لسامي مكي العاني (طبع في بغداد عام 1388هـ / 1968م).

35 ـ «**أسرار الإعجاز في النسق القرآني**»: لإبراهيم محمد إسماعيل عوضين (رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر 1389هـ / 1969م).

36 ـ «**النظم القرآني في كشاف الزمخشري**»: لدرويش الجندي (طبع بدار نهضة مصر 1389هـ / 1969م).

37 ـ «**من روائع الإعجاز في القرآن الكريم**»: لمحمد جمال الدين الفندي (طبع بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية دار التحرير في القاهرة 1389هـ / 1969م).

38 ـ «**الإعجاز الفني في القرآن**»: لعمر محمد السلامي (رسالة ماجستير في

جامعة بغداد، كلية الآداب 1389هـ / 1969م).

39 ـ **«إعجاز القرآن البياني»**: لحفني محمد شرف (طبع في المنيرة بمكتبة الشباب المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عام 1390هـ / 1970م).

40 ـ **«الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق»**: لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء (طبع بدار المعارف في القاهرة 1393هـ / 1971م).

41 ـ **«قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية»**: لعبد العزيز عبد المعطي عرفة (رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1392هـ / 1972م).

42 ـ **«الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً»**: (رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر 1392هـ / 1972م).

43 ـ **«تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة بالعربية»**: لعمر ملاحوش (طبع بمطابع الأمة في بغداد 1392هـ / 1972م).

44 ـ **«المعاني الكيميائية في القرآن»**: لمحسن وهيب عبد (طبع بمطبعة الآداب في النجف 1393هـ / 1973م).

45 ـ **«الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في تراث الرافعي»**: لفتحي عبد القادر فريد (رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر).

46 ـ **«الباقِلّاني وكتابه إعجاز القرآن»**: لعبد الحليم هاشم حسن الشريف (رسالة ماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة 1393هـ / 1973م).

47 ـ **«إعجاز القرآن»**: لمصطفى مسلم محمد (رسالة دكتوراه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام 1393هـ / 1973م).

48 ـ **«المعجزة القرآنية»**: لمحمد العفيفي (طبع بمؤسسة دار العلوم في الكويت 1396هـ / 1976م).

49 ـ **«معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم»**: لعبد الرزاق نوفل طبع في

القاهرة عام 1397هـ / 1977م، وبدار الكتاب العربي في بيروت 1403هـ / 1983م).

50 ـ **«الإعجاز في نظم القرآن»**: لمحمود السيد شيخون (طبع بالمكتبة الأزهرية في القاهرة 1398هـ / 1978م).

51 ـ **«تسعة عشر دلالات جديدة في إعجاز القرآن»**: لرشاد خليفة (طبع بدار الفكر في دمشق 1400هـ / 1979م).

52 ـ **«قبس من الإعجاز»**: لهشام عبد الرزاق الحمصي (طبع بدار الثقافة في دمشق 1399هـ / 1979م).

53 ـ **«القرآن وإعجازه التشريعي»**: لمحمد إسماعيل إبراهيم (طبع بدار الفكر العربي في القاهرة 1400هـ / 1979م).

54 ـ **«ألوان من الإعجاز القرآني»**: لمحمد وفا الأميري (طبع بدار الرضوان في حلب 1401هـ / 1980م).

55 ـ **«نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني»**: لمحمد حنيف فقيهي (طبع بالمكتبة العصرية في بيروت 1401هـ / 1980م).

56 ـ **«الإعجاز الطبي»**: لمحمد متولي الشعراوي (طبع بدار التراث العربي في القاهرة وبدار اللواء في الرياض).

57 ـ **«معجزة القرآن»**: له أيضاً، طبع بمطبعة أخبار اليوم في القاهرة 1400هـ / 1980م.

58 ـ **«الإعجاز العددي للقرآن الكريم»**: لعبد الرزاق نوفل (طبع بدار الكتاب العربي في بيروت عام 1403هـ / 1983م).

59 ـ **النظم القرآني في سورة الرعد»**: لمحمد بن سعد (طبع بعالم الكتب في القاهرة).

60 ـ **«نظم القرآن والكتاب»**: للحداد. طبع في بغداد.

61 ـ **«منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز»**: لمحمد مختار الشنقيطي

(طبع بمطبعة المدني في القاهرة).

62 ـ **«إعجاز القرآن»**: لمنير سلطان (طبع بمنشأة المعارف في الإسكندرية).

63 ـ **«مع القرآن في إعجازه وبلاغته»**: لعبد القادر حسين (طبع بدار التراث العربي في القاهرة، وبدار اللواء في الرياض).

64 ـ **«القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز»**: لمحمد عبد الغني حسن (طبع في القاهرة).

65 ـ **«الإعجاز النحوي في القرآن الكريم»**: لفتحي الدجني (طبع بمطبعة الفلاح في الكويت).

66 ـ **«إعجاز القرآن»**: لمحمد علي المعلم.

67 ـ **«السماء في القرآن الكريم»**: لزغلول راغب محمد النجار، طُبع في بيروت، دار المعرفة 1423هـ / 2002م.

68 ـ **«الأرض في القرآن»**: له أيضاً، عن دار المعرفة.

69 ـ **«الحيوان في القرآن الكريم»**: له أيضاً، عن دار المعرفة.

70 ـ **«حقائق علمية في القرآن»**: له أيضاً، عن دار المعرفة 1426هـ / 2005م.

2 ـ علم فَوَاتح السُّوَر وخواتمها(*)

إن القارىء للقرآن يجد أوائل السور أحياناً مُفْتَتَحةً بحروف مثل: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: 1] وأحياناً بِجُمل إنشائية أو إخبارية، ومن غاية البلاغة حسن افتتاح الكلام؛ لأنه أول ما يلامس أذن السامع، فإن كان بليغاً جميلاً استدعى انتباه السامع وإقباله، وإلا لم يكن له ذلك الوقع والتأثير.

وقد شهد أئمة البيان والبلاغة للقرآن الكريم أنه أتت فيه فواتح السور على أحسن الوجوه وأكملها، حتى أُخِذَتْ منه فنون حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال، كما أخذت من أساليبه سائر فنون البلاغة.

ويجد الناظر في فواتح السور تَفنُّناً عظيماً في أنواع الافتتاحيات، أثارت انتباه البلغاء وعقدوا لها الدراسات، والمؤلفات، لحسنها، وكثرة فنونها، ففيها عشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء بين السور عنها وهي: الافتتاح بالتحميد، والتسبيح لله تعالى، والقَسَم، والنداء، والأمر، والجمل الخبرية، وحروف التهجي، وجمل الشرط، والاستفهام، والدعاء، والتعليل[1].

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**البرهان**» للزركشي 1/ 253، «**الإتقان**» للسيوطي 3/ 316، النوع الستون، في فواتح السور، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زادة 2/ 478، في الدوحة السادسة: العلوم الشرعية، الشعبة الثامنة: فروع العلوم الشرعية، المطلب الثالث: فروع علم التفسير، علم معرفة فواتح السور، و«**كشف الظنون**» لحاجي خليفة 1/ 84 و3/ 1293، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 503 علم معرفة فواتح السور، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح: 376، الباب الثالث، الفصل الرابع: لمحة خاطفة عن فواتح السور، و«**من أسرار القرآن الكريم**» مقال لحمد الشرباصي، نشره في مجلة الأزهر مج 20، ع 2، 1368هـ/ 1948م. و«**فواتح سور القرآن**» مقال لمحمد عبد المنعم خفاجي، نشره في مجلة «**الإسلام**» س 32، ع 38، 1382هـ/ 1963م. و«**من أسرار القرآن الكريم**»، مقال لعلي النجدي ناصف نشره في مجلة «**منبر الإسلام**» س 26، ع 5، 1388هـ/ 1968م، و«**من أسرار القرآن الحروف والأعداد**» مقال لمصطفى محمود نشره في مجلة «**صباح الخير**» 1396هـ/ 1976م و«**فواتح سور القرآن**»، مقال لحفني محمد شرف، في مجلة «**منبر الإسلام**» س 21، ع 2، 1383هـ/ 1963م. و«**علوم القرآن الكريم**»، للعتر، ص: 155.

(1) انظر تفصيلها وبيان السور التي افتتحت بكل نوع منها في «**الإتقان**» النوع الستين.

الأول: استفتاحه بالثناء عليه عَزَّوَجَلَّ :

والثناء قسمان: إثباتٌ لصفات المدح؛ ونفي وتنزيه من صفات النقص.

فالإثباتُ نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في خمس سور[1]، و: ﴿تَبَارَكَ﴾ في سورتين: الفُرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية: 1]، والمُلك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الآية: 1].

والتنزيه نحو: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1 ـ والحشر: 1 ـ والصف: 1]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة والتغابن]، كلاهما في سبع سور، فهذه أربع عشرة سورة استُفتِحَت بالثناء على الله: نصفُها لثبوتِ صفات الكمال، ونصفُها لسلب النقائص.

قلت: وهو سرّ عظيم من أسرار الألوهية. قال صاحب «**العجائب**»[2]: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ هذه كلمة استأثر الله بها؛ فبدأ بالمصدَّر منها في سورة بني إسرائيل لأنه الأصل؛ ثم الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، في الحديد والحشر والصف؛ لأنه أسبقُ الزمانين، ثم بالمستقبل في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في سورة الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها، وهي أربع: المصدر، والماضي، والمستقبل والأمر المخاطب، فهذه أعجوبة وبرهان.

الثاني: استفتاح السُّور بحروف التّهجّي

نحو: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: 1]، ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: 1] ﴿الٓمٓرۚ﴾ [الرعد: 1] ﴿الٓرۚ﴾ [الحجر: 1]، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: 1]، ﴿طه﴾ [طه: 1]، ﴿طسٓۚ﴾ [النمل: 1]، ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: 1] ﴿يسٓ﴾ [يس: 1] ﴿صٓۚ﴾[3] ﴿حمٓ﴾ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: 1-2]، ﴿قٓۚ﴾ [ق: 1]، ﴿نٓۚ﴾ [القلم: 1]. وذلك تسع وعشرين سورة.

---

(1) وهي الفاتحة: 2، والأنعام: 1، والكهف: 1، وسبأ: 1، وفاطر: 1.

(2) «**غرائب التفسير وعجائب التأويل**» لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني (ت 505 هـ) مخطوط في دار الكتب المصرية رقم 492 تفسير وقوم بتحقيقه شمران سركال يونس العجلي، كرسالة دكتوراه في كلية الآداب – جامعة عين شمس – انظر «**أخبار التراث العربي**» 4/ 22.

(3) الزمخشري «**الكشاف**» 1/ 17.

قال الزمخشري (ت 538 هـ): «وإذا تأملت الحروفَ التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون. في تسع وعشرين سورة، عدد حروف المعجم. ثم تجدها مشتملةً على أنصاف أجناس الحروف: المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة والمطبقة والمنفتحة والمستعلية والمنخفضة وحروف القلقلة. ثم إذا استقريت الكلام تجدُ هذه الحروف هي أكثر دَوراً مما بَقِيَ، ودليله أن الألفَ واللام لمّا كانت أكثر تداوراً جاءت في معظم هذه الفواتح، فسبحان الذي دقّت في كل شيء حكمته»[1] انتهى.

فما هو الهدف أو المقصود من إيرادها؟

أكثر العلماء من المفسرين واللغويين، وغيرهم قالوا: إن هذه الحروف المُقَطَّعة في فواتح السور هي أسماء السور التي افتُتِحَتْ بها، قالوا: سُمِّيتْ بها إيذاناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب، قد رُكِّبَت من هذه الحروف وأمثالها، وفي ذلك إشارة إلى الإعجاز، وأن القرآن لولا أنه وحي من الله تعالى لما عجزوا عن معارضته[2].

يؤيد هذا القول أحاديث، منها ما في الصحيحين[3] عن أبي هريرة ﵁: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الٓمٓ السجدة، وهل أتى على الإنسان».

وكذا حديث: «**يسٓ قلب القرآن**»[4].

وحديث: «**من قرأ آية [الكرسي] و[حم] المؤمن عُصِمَ ذلك اليوم من كل سوء**»[5].

(1) «**الكشاف**» 1/ 17، في الكلام على أول سورة البقرة، بتصرُّف في النقل.

(2) هكذا نقله أبو السعود في «**تفسيره**» 1/ 16، وكثيرون ذكروه أنه اسم للسورة دون ذكر الإشارة إلى الإعجاز.

(3) كلاهما في الجمعة «**البخاري**» 2/ 5، و«**مسلم**» 3/ 16.

(4) أخرجه أحمد عن معقل بن يسار مرفوعاً في ضمن حديث 2/ 26 وأخرجه الترمذي عن أنس عنه ﷺ وفيه «**وقلب القرآن يٓس**». في فضائل القرآن رقم 3048 والبزار عن أبي هريرة. «**تفسير ابن كثير**» 6/ 547.

(5) أخرجه البزار والترمذي في فضائل القرآن رقم 3039، والأحاديث في تسمية السور «**حمٓ**» و«**يٓس**» وغيرهما كثيرة، انظرها في الجَامِعين «**الصغير**» و «**الكبير**» في لفظ «**من قرأ**».

وذهب كثير من المحقّقين إلى أن هذه الحروف هي حروف مسرودة على طريقة التعديد - أي النطق بلفظها فقط - تنبيهاً على إعجاز القرآن، وكأنه يقول: إن القرآن منتظم من عين الحروف التي يتألف منها كلام العرب؛ فلولا أنه نازل من عند خلاّق القوى والقُدَر لما تضاءلت عن الإتيان بمثله قدرتهم، ولا عجزت عن كلامٍ يساويه طاقاتهم، وهم فرسان البيان وأرباب الفصاحة والبلاغة.

وقيل: إنّ هذه الحروف جاءت لِيَدُلَّ كل حرف منها على اسم من أسمائه تعالى، أو أنها لو وُصِلت صارت اسماً من أسماء الله تعالى. وهما منقولان عن ابن عباس. فقد ورد عنه أنه قال: الٓمٓ: **«أنا الله أعلم»**. وقيل. إن الألف من **«الله»**، واللام من **«لطيف»**، والميم من **«مجيد»**.

ومثال وصلها ببعضها ما ورد عن ابن عباس: **«الٓر»** و**«حمٓ»** و**«نٓ»** هي الرحمٰن.

واستشهدوا لهذا بأن العرب قد تستعمل الحرف تريد به الكلمة، كقول الشاعر:

فـقُـلْـتُ لـهـا قـفـي فـقـالـت قَ

أي: وقفتُ.

والذي يترجّح عندنا من هذه الأقوال وغيرها هو المذهب الأول، وذلك لما ذكرنا من الأدلة، ولأنه أقرب المذاهب لاستعمال العرب، وإفادة الكلام.

أما الرأي الثاني: الذي يجعلها إشارة فقط إلى إعجاز القرآن؛ لأن القرآن مؤلّف من هذه الحروف وغيرها، وكلامكم هو كذلك، وحيث عجزتم عن الإتيان بمثله فقد ثبت أنه كلام الله، فهذا الرأي له مؤيِّدات كثيرة.

منها: أن عدد السور التي افتتحت بحروف التهجي تسع وعشرون، وهو عدد حروف الهجاء إذا جعلنا الهمزة والألف حرفين، وعدد الحروف الواردة فيها هو 14 أي نصف الحروف، وأنها جاءت على نظام تركيب الكلمة عند العرب، منها ما هو حرف واحد، ومنها اثنان، وثلاثة، وأربعة، وخمسة.

ومن أقوى ما يُؤَيَّد به هذا الرأي أن عادة القرآن أن يذكر بعد هذه الافتتاحيات القرآن وعظمته، إلا مواضع قليلة هي ثلاثة.

لكنه بعدما فُسِّرَ الرأي الأول بأن هذه الفواتح أسماء للسور سُمِّيَتْ بها إشارة للإعجاز فقد أصبح الرأي الأول يتضمن هذا الثاني، وهو بذلك أقربُ منه، لما فيه من إفادة معنى مراد؛ ليس مجرد الرمز والإشارة.

وأماجعل هذه الحروف رمزاً لاسم من أسماء الله تعالى مُنْفَرِدة أو بوصلها مع بعضها فقد أُولِعَ به كثيرون من أهل الرِّياضات والتعبدات، وراح كل واحد يَحْمِلُها مَحَامِلَ حسبما يخطر له، فليس ممّا نرجحه، لعدم انضباطه، أما شواهد كلام العرب فمنضبطة بقرينة تفيد المراد، والله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين.

وبناء على الرأيَيْن الأقوى في تفسير هذه الفواتح لحفظ العلماء دِقَّة التناسب بينها وبين السور التي افتتحت بها، وأتوا بعجائب غريبة:

قال الإمام الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المُقَطَّعة، واختصاص كل واحدة بما بُدِئَت به، حتى لم يكن لترد «الٓمٓ» في موضع «الٓر» ولا «حمٓ» في موضع «طسٓ». وذلك أن كل سورة بُدئَت بحرفٍ منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع «قٓ» موضع «نٓ» لَعُدِم التناسب الواجبُ مراعاته في كلام الله.

وسورة «قٓ» بُدِئَت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف، من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، و. . .، وقول العتيد والرقيب. . . وحقيّة الوعيد. . . وغير ذلك مما هو واضح فيها».

ونضيف إلى ذلك ملاءمة حرف القاف الشديد لموضوع السورة ومعانيها كذلك.

«واشتملت سورة «صٓ» على خصومات متعددة: فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [صٓ:5]. ثم اختصام الخَصْمَين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنيه وإغوائهم. .).

وأما إخضاع هذه الحروف إلى حساب رقمي ـ الذي ظهر حديثاً ـ فقد سُبِق

(1) فيما لخصه السيوطي في «**الإتقان**» النوع الثاني والستون مع تصرف.

بمحاولة قديمة هي حسابُ الجُمَّل الذي توصل به بعضهم إلى وقائع معينة، أو فضيلة شخص، وكل منهما وكذا ما يشابههما من أي تفسير للقرآن ـ على هذا النحو ـ باطل مردود، وذلك لأنه طريق غير مقبول للفهم في كلام العرب، ولا يجوز فهم القرآن بغير طرائق فهمهم، ولما في ذلك من فتح أبواب لأهل الباطل، فإن كتاباً كبيراً لا يخلو من أن تتفق فيه كلمات أو حروف مع رقم ما، فهل نجعل ذلك دليلاً على حقية ما يزعمه أصحاب هذا الرقم؟!

ثم إن الله تعالى تحدى العرب والعالم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، من الكلام الدال على المعاني، ولم يَتَحَدَّ أحداً بحروف تُعَدُّ ثم تقسم على عدد، فإدخال هذا الأمر خروج بالقرآن أسلوباً ومضموناً وإعجازاً عن حقيقة القرآن. هذا لو فرضنا أن هذا الحساب المزعوم قد انتظم، كيف وقد اختل على يد مُدّعِيه ولم ينتظم.

وليس أمر العدد جديداً، بل قد لاحظ أسلافنا كثرة هذه الحروف في السورة التي افْتُتِحَتْ بها، بل ذهبوا لما هو أبعد من ذلك وهو تلاؤم مضمون السورة لهذه الحروف ونغمها الموسيقي، فعلمنا من هذه البحوث العددية المعاصرة تأكيد دراستهم فقط، وهو إحكام القرآن ودقة نظمه وعمق أغواره، ليس بطريق حساب عدد متوهم مزعوم بل بطريق دقة النظم وعمق التجاوب بين هذه الفواتح وسورها.

قال الزركشي: «وقد عد بعضهم القافات التي وردت في سورة «قٓ» فوجدها سبعاً وخمسين، مع أن آيات السورة خمس وأربعون، وفي سورة «نٓ» تكرر هذا الحرف أربع عشرة ومائة مرة وآياتها اثنتان وخمسون...

كذلك أحصى العلماء عدد كلمات القرآن وحروفه، وكلمات سُوَرِه وحروفها أيضاً، فلم يكن أمر الإحصاء والعدد غائباً عنهم.

لكن العلماء كانوا أبعد نظراً وأَسَدَّ مسلكاً؛ فإنهم أخذوا من هذا العمل بيان إحكام القرآن في نظمه ومعناه؛ كما رأينا.

وهكذا نخلص بعد هذه الدراسة إلى أن حروف الهجاء الواقعة في فواتح السور لها شأن عظيم: افتتحت بها تسع وعشرون سورة، وهو أكبر عدد بالنسبة لغيره من فواتح السور الأخرى، وكل هذه السور مكية عدا البقرة وآل عمران، وقد اشتملت السور التي افتتحت بهذه الحروف على بيان عظمة القرآن وإعجازه، كما أن كلّ افتتاح

منها جاء ملائماً للسور التي افتتحت بها، لفظاً ومعنىً، شكلاً ومضموناً، نغماً ودلالة، مما يجعلها واقعة في مواقعها لتميز هذه السور التي افتتحت بها، فتكون أسماء لها، ومفاتيح افتتحت بها، كما قال الإمام التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله: «سمعت السلف يقولون: إنها أسماء السور ومفاتيحها».

الثالث: من أنواع استفتاح السور: النداء

نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: 104][1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64][2]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1]؛ وذلك في عشر سور[3].

الرابع: الجُمَلُ الخَبَرِيَة

نحو: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: 1]، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]، ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: 1]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر: 2]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [محمد: 1]، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: 1]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: 1-2]، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: 1]، ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: 1]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ [المعارج: 1]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: 1]، ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ في موضعين [القيامة: 1 والبلد: 1]، ﴿عَبَسَ﴾ [عبس: 1]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: 1]، ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ [البينة: 1]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1]، ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ [التكاثر: 1]، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ [الكوثر: 1]، فتلك ثلاث وعشرون سورة.

الخامس: القَسَم

نحو: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ [الآية: 1]، ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [الآية: 1]؛ فتلك خمس عشرة سورة.

---

(1) وذلك في سور: المائدة، والحجرات، والممتحنة.

(2) وذلك في سور: الأحزاب، والطلاق، والتحريم.

(3) ويبقى ثلاث سور وهي: النساء والحج والمُزمِّل.

السادس: الشرط

نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: 1]، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: 1]، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [الشمس: 1]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: 1]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: 1]، فذلك سبع سور.

السابع: الاستفتاح بالأمر

في ست سور: ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: 1]، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: 1]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ [الناس: 1والفلق: 1] في سورتين.

الثامن: لفظ الاستفهام

في: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ [الدهر: 1]، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: 1]، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ [الغاشية: 1]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: 1]، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفيل: 1]، ﴿أَرَءَيْتَ﴾ [الماعون: 1]، فتلك ست سور.

التاسع: الدعاء

في ثلاث سور: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1]، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: 1].

العاشر: التعليل

في موضع واحد؛ نحو: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾.

هكذا جمع الشيخ شهاب الدين أبو شامة المقدسيّ(1)؛ قال: (وما ذكرناه في قسم الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر؛ وكذا الثناء على الله سبحانه وتعالى كله خبر إلا

(1) هو الإمام العلامة ذو الفنون عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، شهاب الدين أبو شامة الدمشقي الشافعي المقرىء النحوي ولد سنة (596) جمع القراءات كلها سنة ست عشرة على الشيخ عَلَم الدين السَّخاوِي، وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرّس وأفتى وبرع في العربية. من مصنفاته: **«شرح الشاطبية»** توفي سنة 665، بدمشق. (الكتبي **«فوات الوفيات»** 2/ 269).

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] فإنه يدخل أيضاً في قسم الأمر؛ و﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1] يحتمل الأمر والخبر؛ ونظم ذلك في بيتين فقال:

أثنى على نفسِهِ سُبْحَانَهُ بِثُبُوتِ ... المدْحِ والسَّلْبِ لمّا اسْتَفْتَح السُّورَا

والأمْرُ شرط الندا التعليلُ والقَسَمُ إلا ... دُعا حُروفُ التّهجي استفهِمِ الخبرا

1 ــ من الكتب المؤلّفة في هذا النوع

1 ـ «**رسالة في أسرار الحروف التي في أوائل السور القرآنية**»: لابن سينا، الحسين بن عبد الله (ت 428 هـ)، مخطوط في التيمورية: 200 مجاميع (**معجم الدراسات القرآنية**: 294).

2 ـ «**فواتح السور**»: له أيضاً (**كشف الظنون** 3/ 1293).

3 ـ «**الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**»: لابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد (ت 654 هـ) طبع بتحقيق حفني محمد شرف، بمطبعة الرسالة في القاهرة 1380هـ / 1960م في (144 ص).

4 ـ «**الحروف المقطعة في أوائل السور**»: للخادمي أبي سعيد عبد الله بن محمد (ت 1192 هـ) طبع بتحقيق فتحي الدجني، بمكتبة الفلاح في الكويت 1405 هـ/ 1985م، ويسمى أيضاً «**تعليقة على الحروف المقطعات في أوائل السور**».

5 ـ «**نزهة الفكر في أسرار فواتح السور**»: لمحمد معاوية بن محمود بن محمد ابن مصطفى التركي التونسي الحنفي، (ت 1294 هـ) (**إيضاح المكنون** 2/ 640).

6 ـ «**المدهش في أسرار القرآن الكريم**»: لمحمد بشير السنوسي، طبع بالمطبعة الحديثة بطنطا 1357هـ / 1938م.

7 ـ «**فواتح السور في القرآن الكريم**»: لمحمد ماضي أبو العزائم، طبع بالقاهرة عام 1371هـ / 1951م.

8 ـ «**فواتح السور في القرآن الكريم**»: لفاروق حسين أمين، رسالة ماجستير أعدّها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1405هـ / 1985م (**أخبار التراث العربي** 23/ 25).

2 ـ خواتم السور

وهي مثل الفواتح في الحُسْنِ: لأنّها آخر ما يقرعُ الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمّنة للمعاني البديعة؛ مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النَّفْس إلى ما يذكر بعد.

ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [52]، وخاتمة سورة الأحقاف: ﴿بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [35] ولأنها بين أدعيةٍ ووصايا وفرائض ومواعظ وتحميد وتهليل، ووعد ووعيد؛ إلى غير ذلك. كتفصيل جملة المطلوب في خاتمة فاتحة الكتاب؛ إذ المطلوبُ الأعلى الإيمانِ المحفوظ من المعاصي المسبِّبَةِ لغضب الله والضلال؛ ففصَّل جملةَ ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]؛ والمراد المؤمنين؛ ولذلك أطلق الإنعامَ ولم يقيّده ليتناوَلَ كلَّ إنعام؛ لأنّ من أنعَمَ الله عليه بنعمةِ الإيمان فقد أنعمَ عليه بكلِّ نعمة؛ لأن نعمة الإيمان مستتبعة لجميع النعم؛ ثم وصفهم بقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7] يعني أنهم جَمَعوا بين النِّعم المطلقة وهي نعمةُ الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال المسبَّبين عن معاصيه وتعدِّي حدوده.

وكالدعاء الَّذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة [285 ـ 286].

وكالوصايا التي خُتِمَتْ بها سورة آل عمران [الآية: 200]، وبالصَّبر على تكاليف الدين، والمصابرة لأعداء الله في الجهاد ومعاقبتهم، والصبر على شدائد الحرب والمرابطة في الغزو المحضوض عليها بقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]، والتقوى الموعود عليها بالتوفيق في المضايق وسهولة الرزق في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]، وبالفلاح لأن ﴿لَعَلَّ﴾ [الطلاق: 36] من الله واجبة.

وكالوصايا والفرائض التي ختمت بها سورة النساء [الآية: 176]، وحسن الختمُ بها لأنها آخر ما نزل من الأحكام عام حجة الوداع.

وكالتبجيل والتعظيم الذي ختمت به المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: 120]، ولإرادة المبالغة في التعظيم اختيرت «ما» على «من» لإفادة العموم، فيتناول الأجناس كلها.

وكالوعد والوعيد الذي ختمت به سورة الأنعام بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الآية: 165] ولذلك أورد على وجه المبالغة في وصف العقاب بالسرعة وتوكيد الرحمة بالكلام المفيد لتحقيق الوقوع.

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة التي خُتِمَت به سورة الأعراف [الآية: 206] والحض على الجهاد وصلة الأرحام الذي ختم به الأنفال [الآية: 75]. ووصف الرسول ومدحه والاعتداد على الصلاة الأمم به وتسليمه ووصيَّته والتهليل الذي ختمت به براءة [الآية: 129]. وتسليته عليه الصلاة والسلام الذي ختم بها سورة يونس [الآية: 109]. ومثلها خاتمة هود [الآية: 123] ووصف القرآن ومدحه الذي ختم به سورة يوسف [الآية: 111]. والردّ على من كذَّب الرسول الذي ختم به الرعد [الآية: 43]. ومدح القرآن وذكر فائدته والعلّة في أنّه إلهٌ واحد الذي ختمت به إبراهيم [الآية: 52]، ووصيته الرسول التي ختم بها الحجر [الآية: 99]. وتسلية الرسول بطمأنيته ووعد الله سبحانه الذي ختمت به النحل [الآية: 128]. والتحميد الذي ختمت به سبحان [الإسراء: 111]. وتحضيض الرسول على البلاغ والإقرار بالتنزيه، والأمر بالتوحيد الذي ختمت به [الكهف: 110]. وقد أتينا على نصف القرآن ليكون مثالاً لمن نظر في بقيته.

فصل

ومن أسراره مناسبة فواتح السور وخواتمها. وتأمل سورة القصص وبداءتها بقصّة مبدأ أمر موسى ونصرته، وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 17]، وخروجه من وطنه ونصرتُه وإسعافه بالمكالمة، وخَتْمَها بأمر النبي ﷺ بألَّا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85].

قال الزمخشري: «وقد جعل الله فاتحة سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: 1] وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117]، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة[1].

(1) الزمخشري، «الكشاف» 3/ 58، آخر سورة المؤمنون.

فصل

ومن أسراره مناسبة فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها؛ حتى إن منها ما يظهر تعلُّقها به لفظاً كما قال في: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 5]، ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: 1].

وفي الكواشي [1]: «لما ختم سورة النساء آمراً بالتوحيد والعدل بين العباد، أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [الآية: 1]».

(1) هو تفسير لأحمد بن يوسف بن حسن، موفق الدين الكواشي المفسّر الفقيه الشافعي، برع في العربية والقراءات والتفسير. وقرأ على والده والسخاوي. وكان عديم النظير زهداً وصلاحاً وتبتُّلاً وصدقاً وله كشف وكرامات. له من المصنفات **«التفسير الكبير»** و**«التفسير الصغير»** وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المَحَلّي في تفسيره، توفي سنة 680 هـ (السيوطي، **«بغية الوعاة»** 1/ 401)، ووجد له تفسير باسم **«تبصرة المُتَذَكِّر وتذكرة المُتَبَصِّر»** مخطوط في التيمورية: 135، وهو التفسير الكبير لأن المؤلف اختصره - انظر (**فهرس معهد المخطوطات بالقاهرة** 1/ 31) ومن التفسير الكبير أيضاً أربع نسخ في الأزهرية الأولى برقم 240 ومنها صورة ميكروفيلمية بمركز البحث العلمي بمكة: 70، والثانية برقم: 518، والثالثة برقم: 218، والرابعة برقم: 3357 (**«معجم مصنفات القرآن»** 2/ 208).

3 ـ علم المناسبات بين الآيات(*)

يُعرف الكلام البليغ بترابطه وإحكامه وانسجام ألفاظه ومعانيه، ولقد أعجز القرآن الكريم العرب ببلاغته وفصاحته؛ وتناسب آياته.

والمناسبة علم شريف، تحزَرُ به العقول، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول. والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابطٍ بينهما، وهو القرابة.

ومنه المناسبةُ في العِلَّة في باب القياس: الوصفُ المقاربُ للحكم؛ لأنه إذا حصلَتْ مقاربتهُ له ظنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول؛ إذا عُرِض على العقول تَلَقَّتْه بالقبول.

وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتيمها؛ ومرجعها ـ والله أعلم ـ إلى معنى ذلك ما رابط بينهما عام أو خاص، عقليّ أو حسي أو خيالي؛ وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهنيّ؛ كالسبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرين، والضدّين، ونحوه. أو التلازم الخارجي؛ كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر.

وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضُها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليفُ حاله حال الأكيد البناء المحكم، المتلائم الأجزاء.

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: **«الفوائد المُشَوِّق»** لابن القيم، ص: 128، في الكلام على ما يختص بالمعاني، القسم الأول، **«البرهان»** للزركشي 1/ 130، و**«الإتقان»** للسيوطي 3/ 323، النوع الثاني والستون، و**«مفتاح السعادة»** 2/ 480، المطلب الثالث في فروع علم التفسير، و**«كشف الظنون»** لحاجي خليفة 2/ 1829، و**«أبجد العلوم»** للقنوجي 2/ 510، و**«مباحث في علوم القرآن»** لصبحي الصالح: 336، الفصل الرابع.

وقد قلّ اعتناء المفسّرين بهذا النوع لدقته؛ وممَّن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) وقال في تفسيره: «أكثر لطائف القرآن مُودعة في الترتيبات والروابط».

وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً.

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة، قال القاضي أبو بكر ابن العربي (ت543 هـ) في: «**سراج المريدين**»[1]: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، مُتّسِقَة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرّض له إلّا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عَزَّوَجَلَّ لنا فيه؛ فإنا لم نجد له حَمَلة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه».

وقال الشيخ أبو الحسن الشهرباني[2]: «أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ[3] الإمام أبو بكر النيسابوري (ت 324 هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكُرسيِّ إذا قرىء عليه: لم جُعِلَتْ هذِهِ الآيةُ إلى جَنْبِ هذِهِ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة». انتهى.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام(ت 660 هـ)[4]: «المناسبة علم حسن؛ ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر مُتَّحِد مرتبطٍ أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر ـ قال ـ ومن ربط ذلك

(1) ذكره حاجي خليفة في «**كشف الظنون**» 2/ 984، وقال: ذكره القرطبي في «**تذكرته**».

(2) لعله ممن أخذ عن أبي بكر النيسابوري، وهم جماعة ومنهم: أبو الحسن الدرقطني.

(3) هو عبد الله بن محمد بن زياد، تفقّه بالمزني، والرّبيع، وبرع في الفقه والحديث، أخذ عنه الدارَقُطني، وابن شاهين. توفي سنة 324 هـ (ابن الجزري، «**غاية النهاية**» 1/ 449).

(4) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الشافعي شيخ الإسلام والمسلمين سلطان العلماء إمام عصره بلا مدافعة، تفقّه على الشيخ فخر الدين ابن عساكر، وقرأ الأصول على الشيخ سيف الدين الآمدي، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم. وقد كانت للشيخ العز اليد الطولى في التصوّف. توفي سنة 660 هـ (السبكي، «**طبقات الشافعية**» 5/ 80).

فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصانُ عن مثله حَسَن الحديث فضلاً عن أحسنه؛ فإن القرآن نزل في نيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة. وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ لا يحسنُ أن يرتبط تصرف الإلٰه في خلْقه وأحكامُه بعضها ببعض؛ مع اختلاف العلل والأسباب؛ كتصرّف الملوك والحُكّام والمُفْتين، وتصرُّف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة، وليس لأحدٍ أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها» انتهى.

قال بعض مشايخنا المحققين: «قد وهم من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسبَ الحكمة ترتيباً وتأصيلاً؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استُفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذَكَر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتْلُ كما أفتى، ولا كما نزل مفرقاً؛ بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبه، ونظمه الباهر، فإنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]. قال: والَّذي ينبغي في كل آية أن يبحث أوّلَ كلّ شيءٍ عن كونها مكملةً لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلّة ما وجْهُ مناسبتِها لما قبلها؟ ففي ذلك عِلمٌ جَمّ؛ وهكذا في السُّور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سِيقتْ له».

قال الزركشي (ت 794 هـ): وهو مبنيٌ على أن ترتيبَ السُّورَ توقيفيٌ؛ وهو الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كلِّ سُوَرِه وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يَخفى تارةً ويَظهر أخرى؛ كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء؛ كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: 75] وكافتتاح سورة فاطر بـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أيضاً؛ فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: 54]؛ وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45].

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة، للأمر به.

وكافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 1-2]، فإنه إشارة إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]؛ كأنهم لما سألوا الهداية إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهذا معنى حسنٌ يَظهر فيه ارتباطُ سورة البقرة بالفاتحة؛ وهو يردُّ سؤال الزمخشري[1] في ذلك.

وتأمّل ارتباط سورة لإيلاَفِ قُرَيْشٍ بسورة الفيل؛ حتى قال الأخفش[2]: اتصالها بها من باب قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8].

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن السابقة قد وصفَ الله فيها المنافقَ بأمور أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة؛ فذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] أي الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿فَصَلِّ﴾ أي دُمْ عليها؛ وفي مقابلة الرياء ﴿لِرَبِّكَ﴾، أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ وأراد به التصدّق بلحم الأضاحي؛ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة.

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح، وسورة الكهف بالتحميد؛ لأن التسبيح حيث جاء مقدَّمٌ على التحميد؛ يقال: سبحان الله، والحمد لله. وذكر الشيخ كمال الدين الزَّمْلكَاني[3] في بعض دروسه مناسبَةَ استفتاحهما بذلك ما ملخَّصُه: أن سورة بني إسرائيل افتُتحتْ بحديث الإسراء؛ وهو من الخوارق الدالّةِ على صِدْق

---

(1) هو محمود بن عمر، أبو القاسم صاحب «**الكشاف**».

(2) هو الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري. تلميذ سيبويه، كان عالماً صادقاً ثقة فيما يروي من العلماء وتتلمذ على يديه الكثير من العلماء. وله الكثير من المصنفات منها: كتاب «**الأوسط في النحو**» و«**المقاييس**» و«**الاشتقاق**» وغيرها توفي سنة 211 (ابن الأثير، «**الكامل في التاريخ**» 6/ 406).

(3) كمال الدين الزملكاني عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف، كمال الدين أبو المكارم بن خطيب زملكا. كان عالماً خيّراً متميزاً في علوم عدّة. ولي القضاء بصرخد، ودرّس ببعلبك. وكانت له معرفة تامة بالمعاني والبيان، وله فيه مصنف وله شعر حسن. وهو جد الشيخ كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد الزملكاني. توفي سنة (651)، في دمشق (السبكي، «**طبقات الشافعية**» 5/ 133)، وله كتاب «**التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**» وسيأتي ذكر كتابه ضمن كلام الزركشي، وكتاب «**البرهان في إعجاز القرآن**».

رسول الله ﷺ، وأنه رسولٌ من عندِ الله، والمشركون كذَّبوا ذلك وقالوا: كيف يسير في ليلةٍ من مكة إلى بيت المقدس! وعاندو وتعنّتوا وقالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدِس؛ فرُفِع له حتى وصَفَه لهم. والسبب في الإسراء أوّلاً لبيت المقدس، ليكون ذلك دليلاً على صحّة قوله بصعود السمٰوات؛ فافتتحت بالتسبيح تصديقاً لنبيه فيما ادّعاه؛ لأن تكذيبهم له تكذيب عناد. فنزّه نفسه قبل الإخبار بهذا الذي كذّبوه وأمّا الكهف فإنه لما احتبس الوحيُ، وأرجَف الكفّار بسبب ذلك، أنزلها الله رداً عليهم أنه لم يقطع نعمته عن نبيِّه ﷺ، بل أتمَّ عليه بإنزال الكتاب، فناسَبَ افتتاحُها بالحمد على هذه النعمة.

وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السُّوَر، فما ظنُّك بالآيات وتعلُّق بعضها ببعض! بل عند التأمّل يظهر أنّ القرآن كلَّه كالكلمة الواحدة.

عُدْنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض. فنقول: ذكْر الآية بعد الأخرى؛ إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلُّق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد؛ وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألَّا يظهر الارتباط؛ بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به. فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم، أو لا:

القسم الأول

أن تكون معطوفة؛ ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه؛ كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ﴾ [الحديد: 4]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245] وفائدةُ العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين.

وقد تكون العلاقة بينهما المضادة؛ وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة. وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً؛ ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق؛ ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه؛ ليُعلم عظم الآمر والناهي. وتأمَّل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك.

وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها وتُشكل وجه الارتباط؛ فتحتاج إلى شرح؛ ونذكر من ذلك صوراً يلتحق بها ما هو في معناها: فمنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: 189] الآية؛ فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلة وبين أحكام إتيان البيوت؟ والجواب من وجوه:

أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلّة ونقصانها: معلوم أنّ كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة، ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدةٍ تفعلونها أنتم؛ مما ليس من البرّ في شيء وأنتم تحسبونها برًا.

الثاني: أنه من باب الاستطراد؛ لمّا ذكر أنها مواقيت للحج؛ وكان هذا من أفعالهم في الحج؛ ففي الحديث[1] أنّ ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب؛ فإن كان من أهل المدر نقَب نقباً في ظهر بيته؛ منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلّماً يصعد به. وإن كان من أهل الوبر خرج من خلْف الخباء؛ فقيل لهم: ليس البرّ بتَحَرُّجِكُم من دخول الباب؛ لكن البرّ برّ من اتّقى ما حرّم الله؛ وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم السؤال عن الأهلّة. ونظيره في الزيادة على الجواب قوله ﷺ لما سئل عن التوضّيء بماء البحر فقال: «**هو الطَّهور ماؤه، الحل ميتته**»[2].

الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه؛ من تعكيسهم في سؤالهم؛ وأنّ مثلهم كمثل من يترك باباً ويدخل من ظهر البيت؛ فقيل لهم: ليس البرّ ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة؛ ولكن البر من اتقى ذلك، ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأْتُوا۟

---

(1) أخرجه ابن جرير في تفسيره (2/ 109) من رواية الزهري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: 189].

(2) الحديث أخرجه مالك في «**الموطأ**» 1/ 22، كتاب الطهارة (2)، باب الطهارة للوضوء (3)، الحديث (12)، والشافعي في «**الأم**» 1/ 3، كتاب الطهارة، وأحمد في «**المسند**» 2/ 361، في مسند أبي هريرة رضي الله عنه، والدارمي في «**السنن**» 1/ 185، 186، كتاب الوضوء، باب الوضوء من ماء البحر، وأبو داود في «**السنن**» 1/ 64، كتاب الطهارة (1)، باب الوضوء بماء البحر (41)، الحديث (83)، والترمذي في «**السنن**» 1/ 100، كتاب الطهارة (1)، باب في ماء البحر أنه طهور (52)، الحديث (69) وقال: (حسن صحيح)، والنسائي في «**السنن**» 1/ 50، كتاب الطهارة (1)، باب ماء البحر (47)، وابن ماجه في «**السنن**» 1/ 136، كتاب الطهارة (1)، باب الوضوء بماء البحر (38)، الحديث (386).

ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: 189]، أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن يباشر عليها، ولا تعكسوا. والمراد أن يصمّم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه؛ وأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] فإن في السؤال اتهاماً.

القسم الثاني

ألا تكون معطوفة، فلا بدّ من دعامة تُؤذِنُ باتّصال الكلام، وهي قرائن معنوية مُؤذنة بالربط؛ والأول مزج لفظيّ؛ وهذا مزج معنويّ، تُنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني، وله أسباب:

أحدها: التنظير؛ فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء؛ ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: 5] عقب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 4] فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يَمضي لأمره في الغنائم على كرهٍ من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون؛ وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجّوا النبي ﷺ وجادَلُوه؛ فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله ﷺ في النفل، فأنزل الله هذه الآية، وأنفذ أمره بها وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء مما بعد أن كانوا مؤمنين. ووصف المؤمنين؛ ثم قال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: 5]، يريد أن كراهتهم لما فَعَلْتَه من الغنائم ككراهتهم للخروج معك. وقيل: معناه أولئك هم المؤمنون حقاً؛ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23]. وقيل: الكاف صفة لفعل مضمر؛ وتأويله: افعل في الأنفال كما فعلت في الخروج إلى بدر، وإن كره القوم ذلك؛ نظيره قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: 151] معناه: كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول من أنفسكم فكذلك أتم نعمتي عليكم؛ فشبّه كراهتهم ما جرى من أمر الأنفال وقسمتها بالكراهة في مخرجه من بيته. وكلُّ ما لا يتمُّ الكلام إلّا به؛ من صفة وصلة فهو من نفس الكلام.

الثاني: المضادّة ومن أمثلته قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [6]، فإنه أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم، وأن من شأنه كَيْتَ وكَيْتَ، وأنّه لا يهدي القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت. فرجَع إلى الحديث عن

المؤمنين، فلما أكمله عقَّب بما هو حديث عن الكفار؛ فبينهما جامع وهميٌ بالتضادّ من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثُّبوت على الأول، كما قيل: «وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ» فإن قيل: هذا جامع بعيد، لأنَّ كونَه حديثاً عن المؤمنين، بالعَرض لا بالذّات، والمقصود بالذات الذي هو مساق الكلام، إنما هو الحديث عن الكتاب لأنّه مفتتح القول.

قلنا: لا يشترط في الجامع ذلك، بل يكفي التعلّق على أي وجه كان، ويكفي في وجه الرَّبْط ما ذكرنا لأن القصد تأكيدُ أمر القرآن والعمل به والحث على الإيمان به، ولهذا لما فرغ من ذلك قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23] فرجع إلى الأول.

الثالث: الاستطراد؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26] قال الزمخشري[1]: «هذه الآية واردةٌ على سبيل الاستطراد، وعقِب ذكر بُدُوّ السوْءَات وخَصْف الورق عليها؛ إظهاراً للمِنَّة فيما خلق الله من اللِّباس، ولما في العُرْي وكشْفِ العَورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر بابٌ عظيم من أبواب التقْوى».

وجعل القاضي أبو بكر[2] (ت 403 هـ) في كتاب «**إعجاز القرآن**» من الاستطراد قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: 48-49] وقال: «كأن المراد أن يجري بالقول الأول على الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص»[3] انتهى، وفيه نظر.

(1) انظر قوله في «**الكشاف**» 2/ 59 عند تفسير الآية من سورة الأعراف.

(2) هو القاضي محمد بن الطيب، أبو بكر الباقِلّاني، وكتابه «**إعجاز القرآن**» طبع بهامش «**الإتقان في علوم القرآن**» للسيوطي، في مطبعة السلام بالقاهرة سنة 1315هـ/ 1897م، طبع أيضاً بهامش «**الإتقان**» بالمطبعة الميمنية بالقاهرة سنة 1317هـ/ 1899م، وطبع بهامشه أيضاً في المطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة 1318هـ/ 1900م، وطبع في مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة 1347هـ/ 1928م في (451) صفحة. وطبع في المطبعة السلفية بالقاهرة بتحقيق محب الدين الخطيب سنة 1349هـ/ 1930م في (444) صفحة، وطبع في مطبعة صبيح بالقاهرة، شرح تعليق محمد عبد المنعم خفاجي سنة 1371هـ/ 1951م، وطبع بتحقيق سَيِّد أحمد صقر في مطبعة دار المعارف بالقاهرة سنة 1384هـ/ 1964م في (393) صفحة. وطبع بتحقيق أمين الخولي سنة 1400هـ/ 1979م. وطبع في عالم الكتب ببيروت عام 1406هـ/ 1986م.

(3) انظر «**إعجاز القرآن**» للباقِلاني ص: 106، فصل الاستثناء.

ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع كقوله تعالى في سورة صٓ بعد ذكر الأنبياء: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [49] فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعاً آخر، وهو ذكر الجنَّة وأهلها، فقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [الأنبياء: 9]؛ فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة، تقول: أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده: هذا الذي عندي والأمر إليك. وقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: 49] كما يقول المصنِّف: هذا باب، ثم يشرع في باب آخر. ولذلك لما فرغ من ذكر أهل الجنة قال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [صٓ: 55].

فصل

وقد يكون اللفظ متصلاً بالآخر والمعنى على خلافه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ [النساء: 73]؛ فقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ منظوم بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ [النساء: 72]؛ لأنه موضع الشماتة.

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6] فإنه متصل بقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ [الأنفال: 5-6].

ومما يحتمل الاتصال والانقطاع قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: 36]؛ يحتمل أن يكون متصلاً بقوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: 35] أي المصباح في بيوت، ويكون تمامه على قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: 36] و﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ صفة للبيوت ويحتمل أن يكون مُنْقطِعاً واقعاً خبراً لقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ [النور: 37].

وممّا يتعيّن أن يكون مُنْقطِعاً قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61] مستأنف، لأنه لو جُعِل متصلاً بـ ﴿يَعْزُبُ﴾ [الآية: 61] لاختل المعنى، إذ يصير على حدّ قولك: ما يعزب عن ذهني إلا في كتاب، أي استدراكه.

وقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، منهم من قضى باستئنافه على أنه مبتدأ وخبر، ومنهم من قضى بجعل ﴿فِيهِ﴾ خبر ﴿لَا﴾ و﴿هُدًى﴾ نصب على الحال في تقدير «هادياً».

ولا يخفى انقطاع ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ [غافر: 7] عن قوله: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: 6].

وكذا ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ عن قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [يسٓ: 76].

وكذلك قوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 31] عن قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ [المائدة: 32].

ومن الكتب المؤلفة في هذا العلم

1 ـ «**البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن**»: لأبي جعفر ابن الزُبير، أحمد بن إبراهيم بن الزُبير الغرناطي (ت 708هـ). حققه شعباني محمد، كرسالة ماجستير من دار الحديث الحسنية بالرباط 1404هـ / 1984م.

2 ـ «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**»: للبقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت 885 هـ) طبع بتحقيق محمد عبد الحميد شيخ؛ الجامعة النظامية في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في الهند سنة 1389هـ / 1969م في (12) مجلداً، ويسمّى أيضاً بـ «**نِعَم الرحمن في تناسب آي القرآن**» ومنه نسخة خطية في صوفيا رقم 424 (الصفار، **معجم الدراسات القرآنية** 205، 350) وقد اختصر كتابه هذا في كتاب سمّاه «**دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم**» (**معجم مصنفات القرآن** 1/50).

3 ـ «**أسرار ترتيب القرآن**»: للسيوطي، جلال الدين (ت 911 هـ) ويسمّى «**تناسق الدرر في تناسب السور**» طبع بدار الاعتصام بالقاهرة عام 1396هـ / 1976م، وطبع أيضاً بتحقيق عبد الله محمد الدرويش، بعالم التراث في دمشق عام 1403هـ / 1983م وطبع أيضاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا، بدار الكتب العلمية في بيروت عام 1406هـ / 1986م. في (160) صفحة.

4 ـ «**مراصد المطالع في تناسب المقاصد والمطالع**»: له أيضاً، ذكره حاجي خليفة في «**كشف الظنون**» 2/1652، ويوجد منه نسخة خطية في جامعة برنستون رقم (4746) تفسير ضمن مجموع (الصفار، **معجم الدراسات القرآنية**: 337).

5 ـ **«نهر النجاة في بيان مناسبات آيات أم الكتاب»**: لساجقلي زادة المرعشي (ت 1150 هـ): (ذكره البغدادي في **«إيضاح المكنون»** 2/ 696).

6 ـ **«جواهر البيان في تناسب سور القرآن»**: للشيخ عبد الله بن محمد الصديقي الغماري، طبع في القاهرة عام 1399هـ / 1979م، وأعيد طبعه في عالم الكتب ببيروت عام 1406هـ / 1986م.

4 ــ علم بلاغة القرآن
(معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح)(*)

ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع.

وهذا العلم أعظم أركان المفسّر، فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، من الحقيقة والمجاز، وتأليف النظم، وأن يُواخَى بين الموارد، ويَعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر، وغير ذلك. وأملا الناس بهذا صاحب «**الكشاف**». قال السَّكّاكي[1] (ت 626 هـ): «واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه؛ كاستقامة الوزن تُدْرَك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ولا طريق إلى تحصيله لذوي الفِطَر السليمة إلا إتقانُ علمَي المعاني والبيان والتمرّن فيهما».

وقال الزمخشري (ت 538 هـ): «من حق مفسّر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به

(*) يمكن اعتبار هذا النوع تابعاً لإعجاز القرآن من الناحية اللغوية، للتوسع فيه راجع مصادر «**إعجاز القرآن وأساليب القرآن**»، وانظر المصادر التالية: «**سر الفصاحة**» للخفاجي ص: 100، وم«**مفتاح العلوم**» للسكاكي ص: 416، و«**الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**» للعزّ بن عبد السلام، و«**الفوائد المُشوّق في علوم القرآن**» لابن القيم، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 419، و«**الإتقان**» للسيوطي 3/ 128 و161 و249، الأنواع: الثالث والخمسون: تشبيهات القرآن واستعاراته، والسادس والخمسون: الإيجاز والإطناب، والثامن والخمسون: بديع القرآن، و«**مفتاح السعادة**» 2/ 413 و421 و446، تشبيه القرآن واستعاراته، والإيجاز والإطناب، والخبر والإنشاء و«**أبجد العلوم**» للقنوجي ص: 494 تشبيه القرآن واستعاراته، و«**مناهل العرفان في علوم القرآن**» 2/ 198 - 205، المبحث السادس عشر: في أسلوب القرآن، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح ص: 313 - 333، في الباب الرابع: التفسير والإعجاز و«**الجمال الساحر في أسلوب القرآن**» مقال لحسن الشيخة (نشر في مجلة منبر الإسلام س 23، ع 1، 1385هـ / 1965م)، و«**الجمانة في تشبيهات القرآن**»، مقال لبدوي طبانة (نشر في مجلة منبر الإسلام، س 26، ع 10 1388هـ/ 1986م).

(1) انظر قوله في «**مفتاح العلوم**» 162 و248 (طبعة نعيم زرزور).

التحدّي سليماً من القادح، وإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو مِنْ تَعَاهُد النظم والبلاغة على مراحل».

وادعى القاضي أبو الطيب[1] (ت 403 هـ) في كتاب «**إعجاز القرآن**» أن كثيراً من محاسن هذا العلم لا يُعدّ من البلاغة القرآنية؛ بناء على اختياره في أن القرآن نزل على خلاف أساليبهم، وتقدّم الكلام في ذلك[2].

فإن قلتَ: كيف عددتَ هذا من أنواع علومه؛ مع أن سلَف المفسرين من الصحابة والتابعين رحمهم الله لم يخوضُوا فيه ولم نقل عنهم شيء من ذلك، وإنما هذا أحدثه المتأخرون؟

قلتُ: إنما سكتَ الأولون عنه لأن القصد من إنزال القرآن تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان، ولم يُقْصَدْ منه تعليمُ طرق الفصاحة؛ وإنما جاءت لتكون معجزةً، وما قُصِدَ به الإعجاز لا سبيلَ إلى معرفة طريقه، فلم يكُن الخوض فيه مسوغاً؛ إذ البلاغة ليست مقصودةً فيه أصلاً؛ لأنه موجود في الصحف الأولى؛ لا مع هذه البلاغة المعينة؛ وإنما كان بليغاً بحسب كمال المتكلم؛ فلهذا لم يتكلم السَّلَف في ذلك، وكان معرفتُهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج فيه إلى بيان، بخلاف استنباط الأحكام، فلهذا تكلموا في الثاني دون الأول.

واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوْضاعها هي عمدةُ التفسير، المطلع على عجائب كلام الله، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة، ولو لم يُحَبِّبْ الفصاحة إلا قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 1-4]، لكفى، والمعلومات كثيرة، ومِنَن الله تعالى جَمّة، ولم يخصِّص الله من نعمه على العبد إلا تعليم البيان، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]، وقال تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89].

ولحذف الواو في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ نُكتةٌ علمية، فإنه جعل تعليمَ البيان في وِزان خَلقه، وكالبدل من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لأنه حيٌّ ناطق؛ وكأنّه إلى نحوه أشار أهلُ المنطق بقولهم في حدّ الإنسان: حيوان ناطق.

(1) هو محمد بن الطيب، أبو بكر الباقِلّاني.
(2) ص: 347.

ولا شكّ أنّ هذه الصناعة تفيد قوة الإفهام على ما يريد الإنسان ويراد منه، ليتمكّن بها من اتباع التصديق به، وإذعان النفس له.

وينبغي الاعتناء بما يمكن إحصاؤه من المعاني التي تكلّم فيها البليغ مُثبتاً ونافياً.

فمنها تحقيق العقائد الإلٰهيّة، كقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: 40] بعد ذكره النطفة ومتعلّقها في مراتب الوجود. وكقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] فمن يقرع سمعه هذا الكلام المعجز استشعر من روعة النفس، واقشعرار الجلد ما يُمَكِّنُ خشية الله وعظمته من قلبه.

ومنها بيان الحق فيما يشكل من الأمور غير العقائد؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 61]، وكقوله ﷺ: «**فمن أين يكون الشبه**»[1]؟ فانظر كيف أعطَى في هذه الأحرف اليسيرة الحجة على من أنكر احتلام المرأة فلا أَبْيَنَ من هذا البيان، ولا أشفى للمرتاب من هذا القول! فإنه يرى إحدى المقدّمتين عياناً، وهو شبه الولد بأمّه، ويعلم قطعاً أنه ليس هناك سببٌ يُحال الشبه عليه غير الذي أنكر.

ومنها تمكين الانفعالات النفسانية من النفوس مثل الاستعطاف والإعراض، والإرضاء والإغضاب، والتشجيع والتخويف. ويكون في مدح وذم، وشكاية واعتذار، وإذن ومنع، وينضم إلى قوة القول البلاغيّ معنى متصل إعانة لها؛ مثل فضيلة القائل وحمية النازع، وقوة البليغ على إطراء نفسه، وتحسين رأيه.

ومن ذلك استدعاء المخاطب إلى فضل تأمّل، وزيادة تَفهُّم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: 46]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وسرُّ هذا أن السامع يَحرص على أن يكون من هؤلاء المُثنَى عليهم، فيسارع إلى التصديق، ويُلقَى في نفسه نورٌ من التوفيق.

(1) من حديث لأم سليم ﵂ متفق عليه، أخرجه البخاري في «**الصحيح**» 1/ 228 - 229 كتاب العلم (3)، باب الحياء في العلم (50)، الحديث (130)، ومسلم في «**الصحيح**» 1/ 251، كتاب الحيض (3)، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (7)، الحديث (32/ 313)، وأم سليم هي بنت ملحان والدة أنس بن مالك ﵁.

ويكون هذا القول البلاغيّ ما يسمى الضمير، ويسمى التمثيل؛ وأعني بالضمير أن يُضمر بالقول المجادل به البيان أحد جزأيه؛ كقول الفقيه: النبيذ مُسْكِرٌ، فَهُوَ حَرَامٌ، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27].

وقد يكون هذا الإضمار في القياس الاستثنائي أيضاً؛ كقولك: لو كان فلانٌ عزيزاً لَمَنَعَ بأعنة الخيل جاره، أو جواداً لشَبَّ لساري الليل ناره، معولاً على أنه قد علم أنه ما مَنَع ولا شبّ، فيثبت بذلك مقابله وهو البخل والذلّة، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقد شهد الحِسُّ والعيان أنهم ما انفضُّوا من حولِه وهي المضمرة، فانتفى عنه صلوات الله عليه أنه فظٌّ غليظ القلب.

ومن أحسن ما أبرز فيه هذا المضمر قول الشاعر:

ولو كان عبدُ الله مولًى هجوتُه ولكنّ عبدَ الله مولى مَواليا[1]

ومثال الاستمالة والاستعطاف قوله تعالى عن آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. وحَسْبك إمامُ المتقين حين سمع شعر القائلة:

ما كان ضرَّكَ لو مَنَنْتَ ورُبَّما مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنَقُ[2]

قال: «لو بلغني شعرُها قبل أن أقتله لما قتلتُه»، وقال الآخر:

ونَحنُ الكاتبون وقد أسأنا فهبْنا لِلكرام الكاتِبينا

ومن الاستمالة والاسترضاء ما لا يخرق السمع أنفذ منه إلى القلوب، وأوقع على المطلوب، قولُه ﷺ للأنصار وقد وَجدوا في نفوسهم قسمةَ الغنائم في غيرهم: «**يا معشر الأنصار! ألم أَجِدْكُمْ كذا؟ ألم أجدكم كذا؟**، ثم قال: **أجيبُوني**، فما زادُوا على قَوْلِهِمْ: الله ورسولُه أَمَنُّ، فقال ﷺ: **أما إنَّكُمْ إنْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ ولصَدَقْتُمْ: جِئْتَنَا بِحَالِ كَذَا وَكَذا**»[3].. فانظر ما أعْجَبَ هذا! استشعر منهم عليه الصلاة والسلام أنّ إمساكهم عن الجواب

(1) البيت للفرزدق يقول لعبد الله بن أبي إسحاق النحوي (سيبويه، «**الكتاب**» 3/ 313). وليس في ديوانه (طبعة صادر ببيروت).

(2) البيت لقُتَيْلَة بنت الحارث، كما في «**السيرة**» لابن هشام 3/ 45.

(3) الحديث متفق عليه من طريقين: الأولى عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه أخرجها البخاري في «**الصحيح**» =

أدبٌ معه لا عجز عنه، فأعلمهم بأنهم لو قالوا صدقوا، ولم يكن هو بالذي يغضب من سماعه، ثم زادهم تكريماً بقوله: «**أَمَا تَرْضَوْن أَنْ يَذْهَبَ الناسُ بِالشَّاءِ والبَعِيرِ، وتَنصرِفُوا برسول الله إلى رِحَالِكُمْ**»، ثم زاد يمينه المباركة البرّة على فضل ما ينصرفون به[(1)]؛ اللهم انفعنا بمحبته، وتفضّل علينا بشفاعته.

وممّا تجد من هذا الطراز قول بعضهم:

أنـــاسٌ أعـــرَضـــوا عـــنّـــا ... بـــلا جُـــرْمٍ ولا مَـــعْـــنَـــى
أســـاءوا ظَـــنَّـــهُـــمْ فـــيـــنـــا ... فـــهـــلاَّ أحـــسَـــنـــوا الـــظَّـــنَّـــا!
فـــإن عـــادوا لـــنـــا عُـــدْنـــا ... وإن خـــانـــوا فـــيـــمـــا خُـــنَّـــا
وإن كـــانـــوا قـــد اســـتَـــغْـــنَـــوْا ... فـــإنَّـــا عـــنـــهـــمُ أَغْـــنَـــى
وإن قـــالـــوا: اذنُ مِـــنَّـــا بَـــعْـــ ... ـدُ بـــاعَـــدْنَـــا مـــن اســـتَـــدْنَـــى

ومن الإغضاب العجيب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50] ولله در القائل:

إذا والـى صـديـقُـك مَـنْ تُـعـادِي ... فـقـد عـاداكَ وانـقـطـع الـكـلامُ

ومن قسم التشجيع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4]، وكفَى بحبِّ الله مشجعاً على منازلة الأقران ومباشرة الطعان! ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]، وكيف لا يكون والقوم صبروا، والملك

= 8/ 47، كتاب المغازي (47)، باب غزوة الطائف في شوال... (56) الحديث (4330). ومسلم في «**الصحيح**» 2/ 738، كتاب الزكاة (12)، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام... (46)، الحديث (139/ : 1061. والثانية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجها البخاري في «**الصحيح**» 8/ 52، كتاب المغازي (64)، باب غزوة الطائف في شوال... (56)، الأحاديث (4331 - 4337)، ومسلم في «**الصحيح**» 2/ 733، كتاب الزكاة (12)، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام... (46)، الحديث (132/ 1059) والحديث بطوله أخرجه ابن هشام في «**السيرة النبوية**» 4/ 141 - 143.

(1) وذلك قوله ﷺ: «**فَوَالذِي نَفْسُ مُحمّدٍ بِيدِهِ لولاَ الهِجْرَةُ لكُنْتُ امْرَءاً مِنَ الأَنْصَارِ**».

الحق جلّ جلاله وعدهم بالمدد الكثير! ثم قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126]، وقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104].

وفي مقابلة هذا القسم ما يراد به الأخذ بالحزم والثاني بالحرب والاستظهار عليها بالعدة، والاستشهاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

ومنه الإبانة بالمدح، وربما مُدِح الكريم بالتغافُلِ عن الزلة والتهاون بالذنب؛ كما أشار إليه القرآن فيما أَسَرّ سيِّد البشر لبعض نسائه ممن أظهره الله على إفشائه، فأخبر سبحانه أنه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: 3] ولذلك قيل:

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومِه ... لكنّ سيّد قومه المتغابي

ومنه التمثيل؛ وإنما يكون بأمر ظاهرٍ يُسلِّمه السامع، ويقوِّيه ما في القرآن من قصص الأشقياء تحذيراً لما نزل بهم من العذاب وأخبار السعداء، ترغيباً لما صاروا إليه من الثواب. وفي الحديث: «**أرأيت لو مَضْمَضْتَ**»(1)، «**أرأيت لو كان على أبيك دين**»(2)، كيف ظهر إمكان نقل الحكم من شبَه إلى شبه.

---

(1) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه أحمد في «**المسند**» 1/ 21، والدارمي في «**السنن**» 2/ 12، كتاب الصيام، باب الرخصة في القبلة للصائم (21)، وأبو داود في «**السنن**» 2/ 779، كتاب الصوم (8)، باب القبلة للصائم (33)، الحديث (2385)، وأخرجه النسائي في «**الكبرى**» (عزاه له المنذري في «**مختصر سنن أبي داود**» 3/ 263)، وأخرجه ابن خزيمة في «**صحيحه**» 3/ 245، باب تمثيل النبي ﷺ قبلة الصائم بالمضمضة منه بالماء (82)، الحديث (1999) وأخرجه ابن حبان في «**صحيحه**» (بتحقيق الحوت) 5/ 23 باب ذكر الإباحة للرجل الصائم.. الحديث (3536)، وأخرجه الحاكم في «**المستدرك**» 1/ 431، باب جواز القبلة للصائم.

(2) قطعة من حديث لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، وسودة بنت زمعة، والفضل بن عباس، - رضوان الله عليهم -، أما حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فأخرجه بأصله دون ذكر الشاهد البخاري في «**الصحيح**» 3/ 378، كتاب الحج (25)، باب وجوب الحج وفضله (1)، الحديث (1513)، ومسلم في «**الصحيح**» 2/ 973، كتاب الحج (15)، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت (71)، الحديث (407/ 1334)، وأخرجه مع ذكر الشاهد النسائي في «**السنن**» 5/ 118، كتاب مناسك الحج (24)، باب تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين (11)، الحديث (2639، 2640)، وفي 8/ 229، كتاب آداب القضاة (49)، ذكر الاختلاف على يحيى بن أبي إسحاق فيه (10)، الحديث (5393) و(5396). وأما حديث عبد الله ابن الزبير فأخرجه أحمد في «**المسند**» 4/ 5، والنسائي في «**السنن**» 5/ 117، كتاب مناسك الحج (24)، باب تشبيه قضاء الحج بقضاء الدين (11)، الحديث (2638). وأما حديث سودة بنت زمعة فأخرجه أحمد =

ومنه أنْ يذكر الترغيب مع الترهيب ويُشفع البشارة بالإنذار، قال الزمخشري: «وسرُّه إرادة التسليط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف؛ فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعذاب، ثَنّاه ببشارة عباده المؤمنين»(1).

من الكتب المؤلفة في هذا النوع

1 ـ **«كتاب التشبيهات»**: لابن أبي عون، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد (ت 322 هـ) عني بتصحيحه محمد عبد المعين خان، طبع في لندن. جامعة كمبردج عام 1376هـ / 1950م في (485 ص).

2 ـ **«تلخيص البيان في مجازات القرآن»**: للشريف الرضي، محمد بن الحسين ابن موسى (ت 406 هـ) طبع بتحقيق حسين علي محفوظ بمجلس الشورى بطهران 1372هـ / 1953م وطبع بتحقيق محمد عبد الغني حسن بدار إحياء الكتب بالقاهرة 1374هـ / 1955م في (463 ص)، وطبع بتحقيق مكي السيد جاسم بمطبعة المعارف ببغداد 1375هـ / 1954م، في (389 ص).

3 ـ **«الجُمان في تشبيهات القرآن»**: لابن ناقيا البغدادي، أبي القاسم عبد الله بن محمد بن حسين (ت 485 هـ) طبع بتحقيق عدنان زرزور، ومحمد رضوان الداية، بوزارة الأوقاف الكويتية عام 1388هـ / 1968م في (440 ص). وطبع بتحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، بوزارة الثقافة العراقية 1388هـ / 1968م في (448 ص) وطبع بتحقيق مصطفى الصاوي الجويني، بمنشأة المعارف بالإسكندرية عام 1396هـ / 1976م.

4 ـ **«بديع القرآن»**: لابن أبي الأصبع العدواني، عبد العظيم بن عبد الواحد بن

= في **«المسند»** 6/ 429. وأما حديث الفضل بن عباس، فمتفق عليه أخرجه البخاري في **«الصحيح»** 4/ 66، كتاب جزاء الصيد (28)، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة (23) الحديث (1853)، ومسلم في **«الصحيح»** 2/ 974، كتاب الحج (15)، باب الحج عن العاجز لزمانه... (71)، الحديث (408/ 1335)، وأخرجه مع ذكر الشاهد أحمد في **«المسند»** 1/ 212 والنسائي في **«السنن»** 8/ 227، كتاب آداب القضاة (49) باب الحكم، بالتشبيه والتمثيل وذكر الاختلاف... (9)، الحديث (5389).

(1) الزمخشري، **«الكشاف»** 1/ 51 في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

ظافر (ت 654 هـ) طبع بتحقيق حفني شرف، بدار نهضة مصر بالقاهرة عام 1377هـ / 1957م في (516 ص). وأعاد المحقق طبعه بالدار عام 1393هـ / 1973م في (399 ص).

5 ـ «**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**»: للقرطاجني، أبي الحسن حازم بن محمد (ت 684 هـ) طبع بتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بدار الكتب الشرقية بتونس عام 1386هـ / 1966م في (468 ص)، وأعاد طبعه بدار الغرب الإسلامي ببيروت عام 1402هـ / 1982م في (470 ص).

6 ـ «**تشبيهات القرآن وأمثاله**»: لابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، (ت 468 هـ) ويمكن أن يكون هو كتاب «أمثال القرآن» نفسه، انظر (ص 486).

7 ـ «**بلاغة القرآن**»: لمحمد الخضر حسين (ت 1377 هـ) طبع بالمطبعة التعاونية بدمشق 1391هـ / 1971م.

8 ـ «**البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابي**»: لصباح عبيد دراز، طبع بمطبعة الأمانة بالقاهرة 1406هـ / 1986م.

9 ـ «**التشبيهات القرآنية والبيئة العربية**»: لواجدة مجيد الأطرقجي، طبع بوزارة الثقافة والفنون بالعراق عام 1399هـ / 1978م.

10 ـ «**البيان القصصي في القرآن**»: لإبراهيم عوضين، طبع بالقاهرة عام 1398هـ / 1977م.

11 ـ «**البيان في ضوء أساليب القرآن**»: لعبد الفتاح لاشين، طبع بدار المعارف في القاهرة عام 1398هـ / 1977م في (292 ص).

12 ـ «**البيان القرآني**»: لمحمد رجب البيومي، طبع بالقاهرة.

13 ـ «**القرآن والصورة البيانية**»: لعبد القادر حسن، طبع بدار نهضة مصر في القاهرة.